المحاضرة الأولى

المُصْطَلحَات الطُّبيَّة المُوَحَدة ونظريَّة الضَّرورة العِلميَّة حَدِيث في المِنْهَجِ والتَّطْبِيْق

الأسْتَاذ الدّكتور مَحَمد هَيْثم الخَيّاط
مدير حفظ الصحة وتعزيزها في المكتب الإقليمي
لشرق البحر الأبيض المتوسط التابع لمنظمة الصحة العالمية

السبت 8 شوال 1409هـ / الموافق 13 أيار 1989م

بسم الله الرحمن الرحيم

لهذا المجمع المبارك فضلٌ عليَّ كبير.

فقد هممت مراراً بأن أعالج هذا الموضوع الذي أعالجه اليوم، ثم كانت تُتاح لي من أمري خَوَالج فأرجئ الكتابة فيه أو الحديث عنه، كالتي قال عنها صُرَيْم بن معشر:

بينا الفتى يَسعى ويُسعى له تِيحَ له من أمره خالج

حتى تلقيت دعوة أخي الأستاذ عبد الكريم خليفة للحديث في هذا الموسم الثقافي، فكان لها الفضل في أن جعلت تردّدي يضمحل، ونقلت ما كان ناشباً في ضميري من طَوْر "الهَمّ" إلى طَوْر "الفعل"، إذا استعملتُ مصطلح الحارث بن حِلِّزة اليشكري:

إنما العجز أن تَهُمَّ ولا تفعل والهَمُّ ناشبٌ في الضمير

* *

والحديثُ عن المصطلح ممتع مستطاب، ومزاولة وضع المصطلح أمتع وأطيب. ولكنك إذا أردت أن تقول للناس كيف تصنع ذلك، ضاقت عليك سبل القول وانسدَّت عليك مشارعه، كالذي يُحسن المشيَ عمرَه كله، فإذا قلت له: "صف لي كيف تمشي" تَبَكَّم فلم يَدْرِ ما يقول!

فاعذروني إذا رأيتم في مقالي غيرَ قليل من التبكُّم !

نشرتُ قبل لِواذِ ثلاثين سنة كتاباً لي في ثمانين وأربعمئة صفحة أسميته "الكيمياء السريرية العامة"، وحاولت فيه أن أجد أو أضع لكل مصطلح أجنبي مصطلحاً عربيَّ النِجار يقابله. وقد كان ذلك غاية في المشقة، ولا سيّما في ميدان الكيمياء وهو ميدان عسير الارتياد. ثم كان أن أعدت قراءة بعض ما كتبت فاستعجم علي.. ومن هنا بدأت رحلتي مع المصطلح تتماوج.. تَسْتَعسِرُ أحياناً فأتعصب للكلمات العاربة بل البائدة لا أرتضي بها بديلاً، وتمشي مستقيمة الصوب أحياناً لا تزيغ يميناً ولا يساراً، وتَجْنَح أحياناً كثيرة مَجْنَحَ الرُخَص، فأستبيح في سبيل الضرورة العلمية أشياءَ لم أكن لأبيحها لنفسي لولا ذلك.. وعن هذه الضرورة العلمية أحب أن أتحدث قبل كل شيء.

* *

والضرورة عند سلف هذه الأمة ضرورتان: ضرورة شرعية وضرورة شعرية. ولو أنني ألمح إليهما ضرورة ثالثة هي الضرورة العلمية.

وهذه الضرورات الثلاث تتصل فيما أرى بالمثل العليا الثلاثة التي توالف عليها الناس: الخير والجمال والحقيقة.

فالضرورة الشرعية خروج على القواعد النافذة.. لوجه الخير
والضرورة الشرعية خروج على القواعد النافذة.. لوجه الجمال
والضرورة العلمية خروج على القواعد النافذة.. لوجه الحقيقة.

* *

وقد أسهب فقهاؤنا – رحمهم الله – في الحديث عن الضرورة الشرعية[1]، ولكنها في ظني تتلخص فيما ذكرته لك. فالأصل في الأشياء الإباحة، لقول الله جل وعز: "خَلَقَ لَكُم مَا في الأرضِ جَمِيعا" [البقرة: 29]، وما خلقه لنا فقد أباحه لنا. ثم اقتضت حكمة الله أن يحرِّم على عباده بعض ما خلق، كما في قوله سبحانه: "قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُوْنَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوْحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" [الأنعام: 145]. ولكن تطرأ بعض حالات يتعرض فيها الإنسان إلى خطر الموت جوعاً على سبيل المثال، فيكون من الخير له – والخير ما فيه مصلحة للإنسان في الدنيا أو الآخرة – أن يعودَ الحكم إلى الأصل – وهو الإباحة– فيقول عزّ

من قائل: "فَمنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ فإنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحيمٌ" [الأنعام: 145]. وذلك ما عبّر عنه سلطان العلماء العزّ بن عبدالسلام بقوله: "الضرورات مناسبة لإباحة المحظورات جلباً لمصالحها" [٢]. فالضرورة قد سمحت بالعودة إلى أصل الإباحة لتحقيق ما فيه الخير في حالة الضرورة هذه. وقُلْ مثل ذلك في المحظورات الأخرى التي هي ترك الواجب، كإباحة الإفطار في رمضان مثلاً للمريض.

وأما الضرورة الشعرية[٣] فهي باديَ الرأي أمر آخر. وإن يكن بعض من تناولها من علماء العربية قد حاول أن يتكئ على مفهوم الضرورة الشرعية ولا سيّما في قضية الرجوع إلى الأصل.

فثَمَّة أصلٌ كان عليه بنيان هذه اللغة الشريفة، وحاول علماء اللغة منذ عهد الخليل أن يتصوروا كيف كان، فقاموا بعملية استيفاء راجع مدهشة، توصلوا منها إلى صرح جميل، لا ترى فيه عِوَجاً ولا أَمْتاً، ولا تحس فيه شذوذاً ولا خللاً، ولَكَمْ أتمنى أن يهتم المجمع أو الجامعة بإجراء بعض بحوث الاستيفاء الراجع بالحاسوب ليتبين لنا المزيد عن عبقرية الخليل ومن سار على دربه.

"فالأصل" في الأسماء – كما تبين لهم– أن تُنَوَّن وأن تدخلها حركة الجر، و "الأصل" في الأفعال أن تُبْنَى "فالأفعال أثقل من الأسماء، لأن الأسماء هي الأُوَل وهي أشدُّ تمكّناً، فمن ثَمَّ لم يلحقها [أي الأفعال] تنوين ولحقها الجزم والسكون" [٤]... "والأفعال كلها حقُها أن تكون مسكّنةَ الأواخر، والأسماء كلها حقُها أن تكون معربة"[٥].

ولكن سرعان ما تبين لهم أن ثَمَّةَ مَنْزَعاً دائماً إلى الخروج على الأصل وعلى القياس على الأصل. وتلك عملية طبيعية تُزاولها الجماعة ويُزاولها الأفراد وتتجلى فيها حيوية اللغة، فإذا مارستها العرب جماعةً كانت مقبولة على الإطلاق وحلَّت محل الأصل.. وإذا مارسها الأفراد كانت مقبولة في بعض الأحوال وأُطلق عليها اسم الضرورة.

وإنك لترى في كتاب سيبويه كثيراً من مثل قوله:

"من كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضع على غير حاله في سائر الكلام" [٦]، وقوله: "قد يشذ الشيء في كلامهم عن نظائره، ويُستخف الشيء في موضع ولا يستخفونه

في غيره"[٧]. حتى قال ابن السيد البطليوسي في الاقتضاب: "إن الأصول قد ترفض حتى تصير غير مستعملة، وتستعمل الفروع كرفضهم استعمال أَيْنُق وقِسيّ وأشياء وأعياد على الأصل"[٨].

كيف يحدث ذلك"

إنه يحدث بآلية يطلق عليها الخليل وسيبويه اسم التشبيه أو الحَمْل. فكأن بنيان العربية هذا الذي توصل إليه هذان العبقريان ليس ببنيان راكد خامل، ولكنه بنيان متفاعل حَرِك، ففيه ساحات جاذبية تجذب البُنَى المتشابهة فتَرْصُفُ بعضها إلى بعض، وفيه مستويات مختلفة من التعبير تَتَوَاثب بينها الكَلِم استجابةً لسطوة الجمال أو سلطان النغم، كتلك المستويات المختلفة من الطاقة في نواة الذرة تَتَوَاثب بينها الذُرَيْرات من جراء سطوة طاقة خارجية ترتفع بها إلى المستوى الأعلى. واستمع إلى قول سيبويه: "وقد يشبّهون الشيء بالشيء وليس مثلَه في جميع أحواله، وسترى ذلك في كلامهم كثيراً" [٩]، وقوله: "يشبّهون الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله ولا قريباً منه، وقد ذكرنا فيما مضى وسنذكره أيضاً إن شاء الله"[١٠]. وقوله: "اعلم أن ما ضارع الفعل المضارع من الأسماء في الكلام ووافقه في البناء، أُجري لفظه مجرى ما يستثقلون، ومنعوه ما يكون لما يستخفون، فيكن في موضع الجر مفتوحاً: استثقلوه حيث قارب الفعل في الكلام ووافقه في البناء، وذلك نحو: أبيض وأسود وأحمر وأصفر، فهذا بناء أذهب وأعلم"[١١].

واستمع إلى هذا النص الذي تراه في اللسان:

"وبنو رَشْدان بطن من العرب، كانوا يسمون بني غَيَّان، فأسماهم سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بني رَشْدان.. وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم "رَشْدان" على هذه الصيغة ليحاكي به "غَيَّان". قال ابن سيده: "وهذا واسع كثير في كلام العرب، ويحافظون عليه ويدعون غيره إليه. أعني أنهم قد يؤثرون المحاكاة والمناسبة بين الألفاظ تاركين لطريق القياس. كقوله صلى الله عليه وسلم: ارجِعْنَ مأزوراتٍ غير مأجورات، وكقولهم: حوراء عيناء من الحِيرِ العِين، وإنما هو "الحُوْر" فآثروا قلب الواو ياءً في الحُور إتباعاً للعِين. وكذلك قَولهم: إني لآتية بالغَدَايا والعَشَايا؛ جمعوا الغداة على غدايا، إتباعاً للعشايا، ولولا ذلك لم يجز تكسير فُعْلة على فعائل.. فإذا كانوا قد يفعلون مثل ذلك محتشمين من كسر القياس، فَأَنْ يفعلوه فيما لا يكسر القياس أَسْوَغ"[١٢].

لماذا يحدث ذلك؟

إن الجماعة اللغوية تبتعد عن الأصل وتضحي بالقياس من أجل "الجمال". وسواء عبَّروا عن هذا الجمال بما يستخفّون في مقابل ما يستثقلون، أو بمحاكاة الصيغة، أو بالإتباع أو بغير ذلك من العبارات، فذلك لا يخرج بهنّ جميعاً عن مفهوم "الجمال". فمن أجل "الجمال" وحده يستبيحون هذا الابتعاد عن الأصل والخروج على القياس.

ومما يؤيّد مزاولة الجماعة اللغوية للخروج على القياس في سبيل الجمال ما ذكره البغدادي في الخزانة:

"فإن قال قائل: فَلِمَ ذهب الخليل وسيبويه إلى أن الياء قد حذفت [من جَوَار] حتى إنه لما نقص وزن الكلمة من بناء فَوَاعل دخلها التنوين؟ قيل: لأن الياء قد حُذِفَتْ في مواضع لا تبلغ أن تكون في الثقل مثل هذا كقوله تعالى: "الكَبِيْرُ المُتَعَالِ" و "يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ" و"يَوْمَ التَّنَادِ" وقال الشاعر: "وأخو الغَوَانِ متى يَشِبْ يَصْرِ مْنَه" وقال آخر: "دَوَامِي الأيْدِ يَخْبِطْنَ السريحا" فأكتُفِيَ في جميع هذه بالكسرة من الياء وهو كثير جداً. فلما كان الاكتفاء بالكسرة جائزاً مستحسناً في هذه الأسماء الآحاد، والآحادُ أخلفُ من الجموع، كان باب >جَوَارٍ" جديراً بأن يلزم الحذف لثقله، ألا ترى أنه جمع، وهو مع ذلك الجمع الأكبر الذي تنتهي إليه الجموع، فلما اجتمع فيه ذلك، وكانوا قد حذفوا الياء مما هو أخف منه، ألزموه الحذفَ البتَّة حتى لم يَجُزْ غيره. وقد حُذِفَت الياء من الفعل أيضاً في موضع الرفع حذفاً كالمطرد، كقوله تعالى: "ما كُنَّا نَبْغِ" و"اللَّيْلِ إذَا يَسْرِ" وهو كثير. فهذا يدلُّك على اطّراد حذف الياء.. وأجازوا الحذف في بعض المواضع استخفافاً"[١٣].

فليت شعري ما الدافع إلى هذا الاستخفاف إن لم يكن دافع الجمال؟

ولكنك تلمح في بعض الأحايين دافعاً آخر، من أمثلته مسألة "ما" التي تعمل على عمل "ليس". قال سيبويه: هذا باب ما أُجري مُجرى "ليس" في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يصير إلى أصله. وذلك الحرف "ما"، تقول: [ما عبدُ اللهِ أخاك] و[ما زيدٌ منطلقاً] وأما بنو تميم فيُجرونها مُجرى أمَا وهَلْ، وهو القياس، لأنها ليست بفعل، وليس "ما" كليس، ولا يكون فيها إضمار. وأما أهل الحجاز فيشبهونها بليس، إذ كان معناها كمعناها"[١٤].

فأنت كما أنك ترى "الجمال" هو في الغالب غاية هذا الخروج على الأصل، فإنك لتلمح – في "ما" التي تعمل عمل "ليس" مثلاً – غايةً أخرى غير غاية الجمال ألا وهي الحقيقة أو قل الدِقَّة العلمية. فأهل الحجاز يشبّهون "ما" بليس إذْ كان معناها كمعناها، فوجدوا أن الدقة العلمية تقتضي منهم أن يشبّهوا في اللفظ ما تشابه في المعنى.

نخلص من ذلك كله إلى أن ظاهرة الخروج على الأصل ظاهرة طبيعية بل سنة أصيلة من سنن كلام العرب، تمارسها الجماعة اللغوية من أجل الحقيقة تارة ومن أجل الجمال تارات. وقد كان لا بد من الاعتداد بهذه الظاهرة من قِبَل الخليل وسيبويه ضماناً لتَمَاسُك المقدمات الفكرية التي قام عليها النحو كله.

ما الذي يحدث الآن عندما يمارس الأفراد ما مارسته الجماعة؟

إن هذا هو الذي يطلقون عليه اسم الضرورة، وهي نوع مخصوص من الظاهرة لأنه يتجلى في اتجاهين: الاتجاهُ الأول هو الخروج على الأصل اقتداءً بما فعلته الجماعة اللغوية في بعض الأحوال، والاتجاهُ الثاني هو العودة إلى الأصل ببعض ما أخرجته الجماعة اللغوية عن أصله.

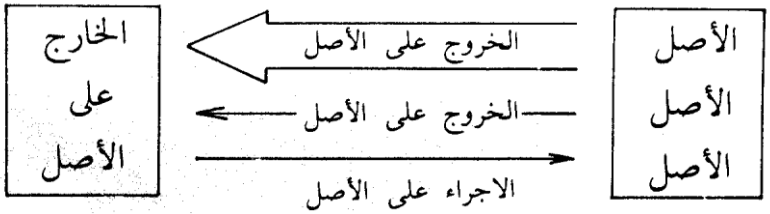

ومَرَدُّ ذلك في الغالب إلى النظرة الجمالية، ولو أنك تستطيع أن ترده أحياناً إلى تحرّي الحقيقة. وهو يحدث في الغالب في الشعر ولو أنه قد يحدث في غيره من أنماط الكلام. فسيبويه يقول: "وهذا قليل في الكلام كثير في الشعر" [١٥] في الوقت الذي يقول فيه: "اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام"[١٦].

والذي يظهر لي في موضوع الضرورة الشعرية، أن الشاعر وهو يزاول هذا المستوى المحلّق من الكلام، يكون في حالة من الانفعال يتهدَّر فيها تَهَدُّرَ السيل، فيضيق ذرعاً ببعض ما يحدُّ من تَهْدَارِه من قوالب الكَلِم، فلا يلبث أن يقفز عنها إلى غيرها ابتكاراً من سليقته، وافتِجاراً مما استُودع في لا شعوره من تراث الجماعة اللغوية، كهذا الذي قال الأخطل:

لكلِّ قرارةٍ منها وفجٍ أضاةٌ ماؤها ضَرَرٌ يمور

قال ابن الأعرابي: ماؤها ضَرَر أي ماء نَمِير في ضِيْق، وأراد أنه غزير كثير، فمجاريه تضيق به وأن اتّسعت.

ولله در طرفة بن العبد إذ يعبِّر عن مثل ذلك بقوله:

رأيتُ القوافي يَتَّلِجْنَ مَوَالِجاً تَضَايَقُ عنها أن تَوَلَّجَها الإبَرْ

قال الصاحب بن عباد: وحدثني محمد بن يوسف الحمّادي، قال: حضرت مجلس عبيدالله بن عبدالله بن طاهر، وقد حضره البحتري، فقال: يا أبا عبادة! أمُسلم بن الوليد أشعر أم أبو نواس؟ فقال : بل أبو نواس، لأنه يتصرَّف في كل طريق ويتنوَّع في كل مذهب، إن شاء جَدّ وإن شاء هَزَل، ومسلم يلتزم طريقاً واحداً لا يتعدَّاه، ويتحقَّق مذهباً لا يتخطَّاه. فقال عبيدالله: إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا! فقال: أيها الأمير! ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله، وإنما يعرف الشعر من دُفِعَ إلى مَضَايقه! فقال: وَرِيَتْ بك زنادي يا أبا عبادة! لقد حكمت في عَمَّيْكَ حُكْمَ أبي نواس في عَمَّيْه جرير والفرزدق فإنه سئل عنهما ففضل جريراً، فقيل له إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا، فقال: ليس هذا من علم أبي عبيدة، وإنما يعرفه من دُفِع إلى مَضَايِق الشعر"[١٧].

وهذا أمرٌ لَمِسَهُ به ابن جني في بعض أحيانه فقال:

"متى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها، فاعلم أن ذلك على ما جَشِمَه منه، وإنْ دلَّ من وجهٍ على جوره وتعسُّفه، فإنه من وجهٍ آخر مُؤْذِنٌ بصِيَالِهِ وتَخَمُّطِه، وليس بقاطعٍ دليلٍ على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته. بل مثله في ذلك عندي مثل مُجْرِي الجَمُوح بلا لجام، ووارد الحرب الضَرُوس حاسراً من غير احتشام، فهو وإن كان ملوماً في عنفه وتهالكه، فإنه مشهودٌ له بشجاعته وفيضِ منَّتِه: ألا تراه لا يجهل أن لو تَكَفَّر في سلاحه، أو اعتصم بلجام جواده، لكان أقرب إلى النجاة، وأبعد عن المَلْحاة، ولكنه جَشِمَ ما جَشِمَه على علمه بما يعقب اقتحام مثله، إدلالاً بقوة طبعه ودلالةً على شهامة نفسه"[١٨].

وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبْ نظر علماء العربية إلى هذا الموقف النفسي لدى الشاعر الذي يملي عليه ارتكاب الضرورة.

فمنهم فئة لم تَرْقَ إلى فهم موقف الشاعر ولم تَعِشْ معاناته، فقالت عن الضرورة إنها ضربٌ من الخطأ ومجانبة الصواب.. هكذا جملةً واحدة! يمثل لهذه الفئة ابن فارس ومن تَقَيَّل ظلالَه من ا لمُحْدَثين. قال في "الصاحبي":

"لا معنى لقول من يقول إن للشاعر عند الضرورة أن يأتي في شعره بما لا يجوز، ولا معنى لقول من قال: "ألم يأتيك والأنباء تنمي" وهذا وإن صح، وما أشبهه من قوله: "لما جَفَا إخوانُه مصعباً" وقوله "قفَا عند– مما تعرفان– ربوع".. فكله غلط وخطأ. وما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط. فما صح من شعرهم فمقبول وما أَبَتْهُ العربية وأصولها فمردود"[١٩].

ومنهم في المقابل عبقريُّ العربية وواحدُها الخليل، وتلميذه سيبويه، فقد تفطَّنا إلى ما لم يفطن إليه غيرهما، ونفذا إلى أعماق المعاناة الشعرية التي يكابدها الشاعر. وكأمي بهما – لله درهما– يريان أن الشاعر وقد ملأت نفسه نشوة التحليق، ينصب نفسه حَكَماً على مستويات التعبير، فيتخيَّر منها مستوى قد لا يوافق ما شاع عند الناس. فهو إذ يحلِّق في عنفوان تجربته الشعرية، يطل على علٍ على كل ما اختزنته سليقته من تقاليب التعبير وموازين الكلام، فيتخيَّر منها في حركة سريعة كلمحٍ بالبصر ما يجده أقرب إلى التعبير عن معاناته، حتى إذا ما ضافت القوالب الشائعة عند الناس بانفعالاته، قفز عنها إلى ذخيرةٍ مما ترك أسلافه أو الأقدمون في وجدانه، فتخيَّر منها ما استقام مع مشاعره

وتَسَاوَقَ مع أحاسيسه، ولكنه في ذلك كله إنما يتخير بين مستوى من التعبير وآخر، في إطار الذخيرة اللغوية لقومه لا يتعدَّاها ولا يخرج عنها.

فالشاعر – كما سمعتَ ابن جني– ليس عاجزاً عن أن يلتزم القياس، بل هو على ذلك قدير، ولكنه لا يريد– عن وعيٍ أو غير وعي – أن يلتزم بظاهر القياس. وهذه مزية من أبرز مزايا الظاهرة. فهو من أجل الجمال يضحي عن قَصْدٍ بقضية الحفاظ على القوالب.

والضرورة الشعرية إذن، ليست قضيةَ اضطرار مكروه يسوق إليه الوزن والقافية، وإنما هي– كالوزن والقافية– مظهرٌ من مظاهر امتلاك الشاعر لأعِنَّةِ اللغة.. مظهرٌ من مظاهر التعبير الفني الذي يميز الشعر من سائر الكلام. فالضرورة ليست أثراً من آثار عجز الشاعر وقصور لغته، بل هي على العكس دليل على تمكّنه ومقدرته على الأخذ بناصية اللغة.

يقول ابن منظور:

"فإن الأعرابي إذا قَوِيَتْ فصاحتهُ، وَسَمَتْ طبيعتُه، تصرَّف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله، فقد حُكِيَ عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبِقا إليها. وعلى هذا قال أبو عثمان: ما قِيْسَ على كلام العرب فهو من كلام العرب"(٢٠).

ولا أدلّ على ذلك من موقف الشعراء الأُصلاء من تدخل النحاة في أشعارهم.

يُروى أن الفرزدق حين مدح يزيد بن عبدالملك بالشعر الذي منه قوله:

مستقبِلينَ شَمال الشأْمِ تضربُنا بحاصبٍ كنَدِيفِ القطن منثور
على عمائِمنا يُلقى وأرحُلِنا على زواحفَ تُزْجَى مُخُّها رِيرِ

قال ابن أبي إسحاق: "أسأت، إنما هي "ريرُ" وكذلك قياس النحو في هذا الموضع"(٢١). فيُروى أنه لما بلغ الفرزدق عبدالله بن أبي إسحاق عليه قال "أما وجد هذا المنتفخ الخُصْيَيْن لبيتي مخرجاً في العربية؟ أما إني لو أشاء لقلت: على زواحفَ نُزْجيها محاسيرِ، ولكنني لا أقوله!!".

لا أقوله! هذه هي خلاصة القضية لأن هذا الالتزام بالقوالب المألوفة يقصّر عن الأفُق الذي حلَّق إليه الشاعر، وعن أداء كل الجمال الذي يَوَدُّ الشاعر التعبير عنه.

وأنت ترى مثل ذلك في ما قاله عمار الكلبي وقد عِيْبَ عليه بيتٌ من شعره: [٢٢]

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نحوهُم هذا الذي ابتدعوا
إن قلتَ قافيةً بكراً يكون بها ... بيتٌ خلاف الذي قاسوه أو ذَرَعوا
قالوا: لحنتَ، وهذا ليس منتصباً ... وذاك خفضٌ، وهذا ليس يرتفع
كم بين قومٍ قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قومٍ على إعرابهم طُبعوا
ما كلُّ قوليَ مشروحاً لكم فخُذا ... ما تعرفون، وما لم تعرفوا فَذَعوا
لأن أرضيَ أرضٌ لا تُشَبُّ بها ... نارُ المجوس ولا تُبْنَى بها البِيَع

وفي ما قال الفرزدق حين قال:

إليك أميرَ المؤمنين رَمَتْ بنا ... هموم المنى والهَوْجَل المتعسِّفُ
وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروان لم يَدَعْ ... من المال إلا مُسْحتاً أو مُجَلَّفُ

وقال له ابن أبي إسحاق: "بم رفعت مجلَّف" فقال: "بما يسؤوك وينوؤك! علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا"[٢٣]

*
* *

قلنا إن الاتجاه الأول في ظاهرة الضرورة الشعرية هو اتجاهٌ مُوَازٍ لعملية الخروج الجماعية على الأصل. وقد اكتشف ذلك الخليل كما يروي لنا سيبويه، فالشاعر في مرحلة التحليق يشبّه بِنْيَةً ببنْيَةٍ فيحرِّكها في اتّجاهها مبتعداً بالأولى عن الأصل.

قال سيبويه: وسألته عن قوله: إن تأتني أنا كريم فقال: لا يكون هذا إلا أن يضطر شاعر.. يشبهه بما يتكلّم به من الفعل"[٢٤].

وقال في موضع آخر حول جزم الفعل المضارع بـ "إذا": وقد جازَوْا بها في الشعر مضطرين، شبّهوها بـ "إن" حيث رأوْها لما يستقبل، وأنها لا بُدَّ لها من جواب"[٢٥].

وقال في موضع ثالث: وسألت الخليل عن ثلاثة كلاب فقال يجوز في الشعر. شبهوه بثلاثة قرود ونحوها"[٢٦].

فالشاعر تحت تأثير سلطان الجمال، يشبه ظرف الشرط، بحرف الشرط، ويشبه جمع القلة حيث يوجد جمع كثرة، بجمع القلة حيث لا يوجد جمع كثرة، وهكذا...

ويقول سيبويه في موضع آخر: "اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام، من صرفِ ما لا ينصرف: يشبهونه بما ينصرف من الأسماء لأنها أسماء كما أنها أسماء، وحذفِ ما لا يحذف: يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفاً، كما قال العجاج:

قواطناً مكة من وُرْقِ الحَمِي

يريد الحمام، وكما قال خُفاف بن نُدْبة السُلَمي:

كَنوَاحِ ريشِ حمامةٍ نجديةٍ ومسحتِ باللِثَتَيْنِ عَصْفَ الإثْمِدِ..

"وربما مدوا مثل مساجد ومنابر، فيقولون مساجيد ومنابير، شبهوه بما جُمِعَ على غير واحد في الكلام، كما قال الفرزدق:

تنفي يداها الحَصَى في كل هاجرة نفيَ الدنانير تَنْقَادُ الصياريفِ"[٢٧].

"ومن العرب من يثقل الكلمة إذا وقف عليها، ولا يثقلها في الوصل، فإذا كان في الشعر فهم يُجرونه في الوصل على حاله في الوقف.. قال رؤبة:

ضخمٌ يحب الخلق الأضْخَمَّا[٢٨]

"وجعلوا ما لا يجري في الكلام إلا ظرفاً بمنزلة غيره من الأسماء، وذلك قول المَرَّار بن سلامة العجلي:

ولا ينطق الفحشاء من كان منهم إذا جلسوا منا ولا من سَوائنا

وقال الأعشى:

وما قصدت من أهلها لسَوائكا

وقال خطام المجاشعي:

وصالياتٍ ككما يُؤَثْفَيْن

فعلوا ذلك لأن معنى "سَواء" معنى "غير"، ومعنى "الكاف" معنى "مثل". وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهاً"[٢٩].

أما الاتجاه الثاني في مسيرة الضرورة الشعرية، فهو اتجاهٌ معاكس لعملية الخروج الجماعية على الأصل: هو ردّ إلى الأصل أو إجراءٌ على الأصل، يصدر عما أودعه الله

في سليقة الشاعر من تراث الجماعة اللغوية فيجعله يعود إلى الأصل متهدِّياً بهَدْيِ هذه السليقة.

فمن كلام الخليل فيما يرويه سيبويه:

"ويقول يونس للمرأة تسمى بـ "قاضٍ": مررت بقاضيَ قبلُ، ومررت بأُعَيْمِيَ منك. فقال الخليل: لو قالوا هذا لكانوا خُلَقَاء أن يُلزموها الجر والرفع كما قالوا حين اضطروا في الشعر فأجرَوْه على الأصل، قال الشاعر الهذلي:

أبيت على معاريَ واضحاتٍ بهن مُلَوَّب كدم العباط

وقال الفرزدق:

فلو كان عبدالله مَوْلىً هَجَوْتُهُ ولكن عبدالله مَوْلى مَوَالِيَا

فلما اضطروا إلى ذلك في موضع لا بُدَّ لهم فيه من الحركة أخرجوه على الأصل"(٣٠).

وفي مثل ذلك يقول سيبويه في شِبْهِ قاعدة:

"وقد يبلغون بالمعتلِّ الأصل فيقولون: رَادِد في رادّ، وضَنِنُوا في ضَنُّوا، ومررت بجوارِيَ قبل"(٣١).

ويقول: "واعلم أن الشعراء إذا اضطروا إلى ما يجتمع أهل الحجاز وغيرهم على إدغامه أجرَوْه على الأصل. قال الشاعر وهو قَعْنَبُ بن أمِّ صاحب:

مهلاً أعاذِلَ قد جَرَّبْتِ من خُلُقي أني أجود لأقوامٍ وإن ضَنِنوا

وقال:

تشكو الوَجَى من أظلل وأظلل

وهذا في الشعر كثير"(٣٢).

هما إذن عمليتان فكريتان متعاكستا الاتجاه يقوم بهما الشاعر في سبيل الجمال على الغالب.

ولكن هاتين العمليتَيْن تظهران أيضاً عند غير الشاعر تارة، أو لغير وجه الجمال تارة أخرى، في غير الغالب.

تظهران عند غير الشاعر في القراءات مثلاً، كالذي رُوِيَ عن أبي عمرو بن العلاء في قوله تعالى: "فَتُوْبُوْا إلى بَارِئِكُمْ" [البقرة: 54] بإسكان الهمزة في "بَارِئِكُمْ"، وفي قوله "يَأمُرُكُمْ" و "يَنْصُرْكُمْ" و "يَلْعَنْهُمْ" و "يَجْمَعْكُمْ" و "أَسْلِحَتْكُمْ" روى ذلك كله بالتسكين واستشهد على ذلك بقول امرئ القيس:

فاليوم أشْرَبْ غير مستحقِبٍ إثماً من الله ولا وَاغِلِ

أراد "أشربُ" فأسْكَنَ الباء"(٣٣).

وتفسير ذلك أن تسكين حرف الإعراب في هذه القراءة هو كتسكينه في الشعر "إجراءٌ للمنفصل من كلمتَيْن مجرى المتَّصل من كلمة، فإنه يجوز تسكين مثل "إبِل" فأجري المكسوران في "بارِئْكم" مجرى "إبْل"(٣٤).

فهذا كالذي قال سيبويه في الشعر:

"وقد يجوز أن يسكّنوا الحرف المرفوع والمجرور في الشعر، شبهوا ذلك بكسرة فَخِذ، حيث حذفوا فقالوا "فَخْذ" وبضمة عَضُد، حيث حذفوا فقالوا "عَضْد" لأن الرفعة ضمة والجرة كسرة، قال الشاعر:

رُحْتِ وفي رِجْلَيْكِ ما فيهما وقد بَدَا هَنْكِ من المئزر

ومما يسكّن في الشعر – وهو بمنزلة الجرَّة – إلا أن من قال فخذ لم يسكن ذلك، قال الراجز:

إذا اعوجَجْنَ قلت صاحِبْ قَوِّمِ بالدّوِّ أمثال السفين العُوَّمِ

فسألت من يُنشد هذا البيت من العرب، فزعم أنه يريد "صاحبي".. ولم يجئ هذا في النصب لأن الذين يقولون كَبْد وفَخْذ لا يقولون في "جَمَل" "جَمْل"(٣٥).

فهذا التسكينُ في الشعر وفي غير الشعر على السواء موقفٌ جمالي، تفضيلاً لما يستخفّون على ما يستثقلون.

وقُلْ مثل ذلك في الأمثال، فقد حكى البغدادي عن ابن بري أن "الأمثال تُنَزَّل منزلةَ المنظوم"(٣٦)، وقال المبرد: الأمثال يُستجاز فيها ما يستجاز في الشعر لكثرة الاستعمال لها" (٣٧) وقال أبو العلاء: المَثَل يجوز فيه ما يجوز في ضرورة الشعر لأن استعماله يكثر"(٣٨).

وأما ظهور ذلك لغير وجه الجمال فيمثله قول الشاعر:

قد أصبحت أمُّ الخيار تدَّعي عليَّ ذنباً كلُّه لم أصنع

إذ يقول لنا البغدادي في الخزانة[٣٩]:

"وروايةُ الرفعِ عند علماء البيان هي الجيّدة، فإنها تفيد عمومَ السلب، وروايةُ النصبِ ساقطةٌ عن الاعتبار بل لا تصحّ فإنها تفيد سلبَ العموم، وهو خلافُ المقصود.. ورأيتُ للفاضل اليَمَني على هذا البيت كلاماً أحببتُ إيرادَه وهو قوله: معنى هذا البيت أن هذه المرأة أصبحت تدَّعي علي ذنباً، وهو الشيب والصَلَع والعجز وغير ذلك من موجبات الشيخوخة – ولم يقل ذنوباً بل قال ذنباً لأن المراد كِبَرُ السن المشتمل على كل عيب – ولم أصنع شيئاً من ذلك الذنب. ولم ينصب "كلّه" لأنه لو نَصَبَه مع تقدُّمِهِ على ناصِبِه لأفاد تخصيص النفي بالكل، ويعود دليلاً على أنه فعل بعض ذلك الذنب. ومرادُه تنزيه نفسه عن كل جزء منه فلذلك رَفَعَه إيذاناً منه بأنه لم يصنع شيئاً منه قط، بل كلُّه بجميع أجزائه غير مصنوع"[٤٠].

فليس الجمال إذن هو الدافع إلى الضرورة هنا ولكنها الحقيقة، وهذا الضرب من الضرورة هو الذي نريد أن نطلق اسم الضرورة العلمية عليه.

وفي مثل ذلك يقول البغدادي:

"قد يكون للمعنى عبارتان أو أكثر، واحدةٌ يلزم فيها ضرورة إلا أنها مطابقةٌ لمقتضى الحال. ولا شك أنهم في هذه الحال يرجعون إلى الضرورة، لأن اعتناءَهُمْ بالمعاني أشدُّ من اعتنائهم بالألفاظ، وإذا ظهر لنا في موضع أنَّ ما لا ضرورة فيه يصلح هنالك، فمن أين يُعْلَمُ أنه مطابقٌ لمقتضى الحال"[٤١].

وبعد فلقد يعجب المرء حين يرى أن النحاة بعد سيبويه لم يَرْقَوْا إلى فهمه وفهم شيخه هذا العميق لطبيعة الظاهرة.

فترى أبا العباس المبرّد مثلاً يستوعب قضية الرد إلى الأصل ولكنه لا يستوعب الاتجاه الآخر. فقد كان "لا يلتفت إلى شيء من هذه الروايات التي تشذ عن الإجماع والمقاييس"[٤٢]، وذلك لأن "القياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة" [٤٣]. وكان

يرد بعض القراءات "ما دامت لا تطّرد مع قواعده النحوية" [٤٤]. بل كان يعمد إلى الروايات المخالفة للقياس فيغيّر وجه الإنشاد فيها حتى تستقيم على أصوله، فيغيّر قوله:

فما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ يفوقان مِرْدَاسَ في مجمع

بحيث يصبح:

يفوقان شَيْخِيَ في مجمع

ويغيّر قول امرئ القيس:

فاليوم أَشَرِبْ غير مستحقِب إثماً من الله ولا واغِلِ

فيرويه:

فاليوم أُسْقَى غير مستحقِب[٤٥]

ولكنه حين يعالج قضية الإجراء على الأصل يمضي بها إلى أقصى أبعادها. فهو يقول في المقتضب "الضرورة ترد الأشياء إلى أصولها"[٤٦] ويفصّل ذلك بقوله:

"اعلم أن الشاعر إذا اضطر رَدَّ هذا الباب إلى أصله.. لأنه يجوز له للضرورة أن يقول "رَدَدَ" في موضع "رَدَّ" لأنه الأصل كما قال:

الحمد لله العلي الأجْلَلِ

وكما قال:

أني أجود لأقوام وإن ضَنِنُوا

ويجوز له صَرْف ما لا ينصرف، لأن الأصل في الأشياء أن تَنْصَرِف.

فإذا اضطر إلى الياء المكسور ما قبلها أن يُعربها في الرفع والخفض فَعَلَ ذلك، لأنه الأصل، كما قال ابن قَيْسِ الرُقَيَّات:

لا بارك الله في الغوامي هل يُصْبِحْنَ إلاّ لهنَّ مُطَّلَبُ

فإذا احتاج إلى صرف ما لاَ ينصرف صَرَفَه مع هذه الحركة، فيصير بمنزلة غيره مما لا عِلَّةَ فيه". ومثله: "كل شيء لا ينصرف فصرفُه في الشعر جائز، لأن أصلَه كان الصرف فلما احتيج إليه رُدَّ إلى أصله"[٤٧]. والقاعدة في ذلك كما يضعها المبرد: "ويكفيك من هذا كله ما ذكرتُ لك من أن الشاعر إذا اضطر رَدَّ الأشياء إلى أصولها"[٤٨].

وهو قد أمعن في ذلك حتى أجاز في الضرورة الرجوع إلى الأصل مطلقاً وإن لم يَرِدْ به سماع. تجد ذلك في مثل قوله:

"إذا اضطر شاعرٌ جازَ له أن يرد مبيعاً وجميعَ بابه إلى الأصل فيقول "مَبْيُوع" كما قال علقمة بن عبدة:

حتى تذكَّر بيضاتٍ وهَيَّجَهُ يوم الرذاذ عليه الدجن مَغْيُوم

وأنشد أبو عمرو بن العلاء:

وكأنها تفّاحة مَطْيُوْيَةٌ

وقال آخر:

نُبِّئْتُ قومك يزعمونك سيداً وإخالُ أنك سيِّدٌ مَغْيُون

فأما الواو، فإن ذلك لا يجوز فيها.. هذا قول جميع البصريين أجمعين ولست أراه ممتنعاً عند الضرورة"(٤٩).

بل يبلغ بذلك أن يقول:

"قد يجيء في الباب الحرف والحرفان على أصولهما وإن كان الاستعمال على غير ذلك، ليدلَّ على أصل الباب"(٥٠).

وبعد، فإنك لتجد قضية الإجراء على الأصل هذه كالقاعدة المسلَّم بها عند جميع النحاة، على خلافٍ بينهم في استيعاب موقف الخليل وسيبويه.

فابن السراج مثلاً يقول في أصوله:

"وليس له أن يُخرج شيئاً عن لفظه، إلا أن يكون يُخرجه إلى أصلٍ قد كان له، فيرده إليه لأنه كان حقيقته، وإنما أخرجه عن قياسٍ لزمه، أو اطّراد استمر به، أو استخفافٍ لعلة واقعة"(٥١).

وقال ابن جني في شبه قاعدة:

"اعلم أن الشاعر إذا اضطر، جاز له أن ينطق بما يبيحه القياس وإن لم يَرِدْ به سماع"(٥٢).

"فإنه إذا أدى القياس إلى شيء ما، ثم نطقت العرب بخلافه، فإن ما أدى إليه القياس ينبغي أن يُصرف على أنه لشاعرٍ مولد أو لساجعٍ أو لضرورة: هذا ما ذهب إليه النحويون"(٥٣).

وقد أجمع النحويون على جواز قصر الممدود في الشعر لما فيه من رد الاسم إلى أصله، وأجازوا في الشعر تذكيرَ المؤنث لأن الأصل في الأشياء التذكير، وأجازوا في الضرورة وضع العطف موضع التثنية أو موضع الجمع إذ "التثنيةُ والجمعُ المستعملان بالحرف أصلُهما التثنية والجمع بالعطف" فاستعملوا التكرير بالعاطف للضرورة رجوعاً إلى الأصل(٥٤).

ولقد يعجبك أن ترى كيف كان يلمح كل من النحويين بعض ملامح هذه الظاهرة فيحمل عليها بعض ما يدركه من مُسْتَثْنَيَات الضرورة.. ولسوف ترى كيف أن تعمُّق كل فريقٍ من الفرقاء في فهم اتِّجاه الحركة الفكرية لمن يركب الضرورة قد أدى إلى مفارقات طريفة.

فالبصريون كما رأيت يُجيزون صرف ما لا ينصرف، لأن الأصل في الأشياء أن تنصرف، فهم بهذا يلمحون اتجاه راكب الضرورة إلى العودة إلى الأصل. ولكنهم لا يُجيزون ترك الصرف فيما ينصرف للسبب نفسه.

أما الكوفيون فيُجيزون تركَ صرف ما لا ينصرف مستعملين الاتجاه المعاكس في حركة راكب الضرورة من مُسَاوَقَةِ حركة الجماعة اللغوية في الخروج على الأصل، لأنه إذا جاز حذف الواو المتحركة للضرورة من مثل قوله:

فبَيْنَاهُ يشري رَحْلَه قال قائل لِمَنْ جملٌ رخو الملاط نجيب

فَلأنْ حذف التنوين للضرورة كان ذلك من طريق الأولى(٥٥).

وقُلْ مثل ذلك في قضية الممدود والمقصور. فالبصريون يجيزون قصر الممدود لأن الأصل هو القصر فالرجوع إلى الأصل مقبول، أما الكوفيون فيركبون الاتجاه الآخر، فيذهبون إلى جواز مد المقصور لأنه عندهم من باب إشباع الحركات في الضرورة. فالضمة والكسرة والفتحة ينشأ عن إشباعها الواو والياء والألف، كما قال الشاعر:

كأن في أنيابها القَرَنْفُول يريد القرنفل

وكما قال الآخر:

لا عهد لي بنيضال يريد بنضال

وكما قال:

أقول غذْ خَرَّتْ على الكَلْكال يريد الكلكل

فجار للشاعر أن يُشبع الفتحة قبل الألف المقصورة، فتنشأ عنها الألف فيلتحق بالممدود [٥٦]، واستشهدوا على ذلك بكثير مما ورد عن العرب في أشعارها من هذا الضرب كقوله:

إنما الفقر والغناء من الله فهذا يعطي وهذا يحد

وقوله:

سيُغنيني الذي أغناك عني فلا فقرٌ يدوم ولا عناء

فمد الغنى وهو مقصور. ومثله مد السِعْلى والخَوَى واللهى في قوله:

قد علمت أم أبي السِعْلاء وعلمت ذاك مع الجراء

أنْ نِعْمَ مأكولاً على الخَوَاء يا لك من تمرٍ ومن شيشياء

ينشب في المَسْعَلِ واللَهَاء

* *

أما بعد، فقد أطَلْتُ في موضوع الضرورة الشعرية وأسهبتُ، وإنما أردت من الإفاضة في ذلك مدخلاً فسيحاً إلى موضوع الضرورة العلمية.

وفي اعتقادي أنه إذا جاز للشاعر أن يخرج عن الأصل أو يرجع إلى الأصل في سبيل الجمال، فَلأنْ يجوز للعالم أن يفعل مثل ذلك في سبيل الحقيقة والدقة العلمية.. أولى.

والواقع أنك تلمح مثل ذلك في الشعر كما مرَّ بك في مثال "كلُّه لم أصنع"، وتلمح مثل ذلك في غير الشعر من الكلام. ومن هذا الضرب قراءة أبي عمرو: "وَمَنْ كَانَ فيْ هذِهِ أعمى فهو في الآخرِةِ أعْمَى وأضَلُّ سَبِيلاً" [الاسراء: 72] بإمالة "أعمى" الأول، "وعلة أبي عمرو في فتحه الثاني أنه اسم في موضع المصدر، والأول ليس بمعنى المصدر، فأمال الأول وفَتَح الثاني للفرق"[٥٧].

ولكنك ترى ذلك أكثر وضوحاً في قضية النسب.

ففي اللسان عن الأصمعي قال:

"والنَسَب في الناس إلى الحَرَم حِرْمي بكسر الحاء وسكون الراء، فإذا كان في غير الناس قالوا: ثوب حَرَمي.. وذلك للفرق الذي يحافظون عليه كثيراً ويعتادونه في مثل هذا"[٥٨].

ومثله في اللسان عن ابن بري:

"المَرَئي منسوب إلى امرئ القيس على غير قياس وكان قياسه مَرْشي بسكون الراء على وزن مَرْعي"[٥٩] ولكنهم أخرجوه على هذا الوزن ليفرقوا بينه وبين ما يرَى.

وقد أنشد أبو العباس المبرد في الكامل في وصف لحية:

كالأنبِجاني مصقولاً عوارضها سوداء في لين خد الغادة الرود

ولم يُنكر ذلك – كما يقول ابن السيد في الاقتضاب [٦٠] – وليس في مجيئه مخالفاً للفظ مِنبج ما يبطل ن يكون منسوباً إليها، لأن المنسوب يرد خارجاً عن القياس كثيراً، كمَرْوَزِي ورَازِي ونحو ذلك.

وفي مقابل ذلك روى ابن سيده عن الأصمعي كساء منبَجاني منسوب إلى منبج. قال أبو حاتم: فقلت له لم فتحت الباء وانما نسبت إلى منبج؟ قال: خرج مخرج منظَراني ومخبَراني علي ألا ترى الزيادة فيه والنسب مما يُغيَّر له البناء؟!"[٦١].

ويرى ابن السيد البطليوسي "أن العرب ربما حاكت المعنى باللفظ الذي هو عبارة عنه في بعض المواضع. ويوجد ذلك تاره في صفة الكلمة وتارة في إعرابها. فأما في الصفة فقولهم للعظيم اللحية لحياني وكان القياس أن يقول لحيي، وللعظيم الرقبة رقباني والقياس رقبي، وللعظيم الجمة الجماني والقياس جمي، فزادوا في الألفاظ على ما كان ينبغي أن يكون عليه كما زادت المعاني الواقعة على نظائرها"[٦٢].

ومثلها كما في اللسان:

"رجل أُنَفي عظيم الأنف وعُضَادي عظيم العَضُد وأُذَاني عظيم الأذن"[٦٣].

وفي التلخيص لأبي هلال العسكري:

"بيت أرْبَعَاوي: بني على أربع طرائق"[٦٤].

وفي الممتع للنهشلي القيرواني:

"عن أبان بن ثعلب وكان عُرْبانياً عن عكرمة عن ابن عباس إلخ.. قوله عُرْبانياً فإن هذه الألف والنون تُزادان في النسبة ليفرّقوا بهما بين العربي اللهجة والعربي النسب"[٦٥].

وفي اللسان:

"وبنو بكر في العرب قبيلتان: إحداهما بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة والأخرى بكر بن وائل بن قاسط وإذا نسب إليهما قالوا "بكري". وأما بنو بكر بن كلاب فالنسبة إليهم "بَكْرَاوِيُّون"[٦٦].

ومثله:

"العمْري بالفتح نسبة إلى عمرو. والعَمْرَوِيَّة فرقة من المعتزلة منسوبون إلى عمرو بن عبيد"[٦٧].

ولا بد من التوقف هنا فما ورد من ذلك في كلام العرب كثير. ولكنك ترى فيه بكل وضوح حرص العرب على حُسْنِ أداء المعنى، وعلى الدقة العلمية في التعبير عن المراد، فهم يخرجون على القياس حرصاً على إظهار هذه اللطائف، وما ذلك إلا ضرورة يركبونها لوجه الحقيقة.

*
* *

ومما يدخل في باب الضرورة العلمية التدريج في اللغة:

قال ابن جني:

"ومن التدريج في اللغة قولهم "دِيْمَة" و "دِيَم" واستمرار القلب في العين إلى الكسرة قبلها، ثم تجاوزوا ذلك لما كثر وشاع إلى أن قالوا: دَوَّمَت السماء ودَيَّمَتْ: فأما "دَوَّمَتْ" فعلى القايس، وأما "دَيَّمَتْ" فلاستمرار القلب في ديمة و "دِيَم" [٦٨]. ثم أضاف في اللسان[٦٩]: "وأنشد أبو زيد لجَهْم بن سَبَل:

أنا الجوادُ ابنُ الجواد ابنُ سَبَلْ إن دَيَّموا جاد، وإن جادوا وَبَلْ

وأرض مَدِيمة ومُدَيَّمة أصابتها الدِيَم، وأصلها الواو.

قال ابن مقبل:

عقيلةُ رملٍ دافعتْ في حُقُوفِهِ رَخاخ الثرى والأقحوان المُدَيَّما

ومثله ما جاء في القاموس في مادة "ش و ف"[٧٠]:

"والشِيَاف ككتاب أدوية للعين ونحوها، وشَيَّفَ الدوار جعله شِيَافاً"

فأنت ترى الرغبة الصادقة في التمييز بين "دَوَّمَتْ" من التدوين بمعنى استدارت وبين "دَيَّمَت" السماء من الديمة، وفي التمييز بين "شَوَّف" بمعنى زيَّن و "شيَّف" بمعنى جعل الدواء شيافاً، أقول: ولك أن تقيس على ذلك إن شئت التمييز بين "قوَّم" و "قيَّم".

*
* *

هذه الأمثلة التي قصصت عليك هي في نظري إرهاصٌ بما ينبغي أن نفعل في سبيل الحقيقة والدقة العلمية. فقد سَنَّ لنا سَلَفُنا الصالح هذه السُنَن في جواز الخروج على القياس مراعاة للدقة في أداء المعنى وأَلْحَبُوا لنا الطريق، وهي سنة حسنة إن شاء الله لهم أجرُها وأجرُ من عمل بها إلى يوم القيامة!

وقد بدأ مصطلح الضرورة بهذا المعنى يظهر على استحياء في قرارات مجمع اللغة العربية القاهري، فصرت ترى مثلا قولهم:

"يُجيز لمجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية – عند الضرورة – على طريقة العرب في تعريبهم".

وقولهم:

"اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان.والمجمع يجيز هذا الاشتقاق – للضرورة– في لغة العلوم".

وواضحٌ أن الضرورة المقصودة في هذين القرارين وأضرابهما إنما هي الضرورة العلمية.

ثم ذكر المجمع "الضرورة العلمية: صراحةً حينما أقرَّ جواز النحت عندما تُلجئ الضرورة العلمية إليه"[٧١].

وهذا أمرٌ يُحْمَدُ لمجمع القاهرة ويُذكر له.

وأعتقد أن الوقت قد حان للاعتراف الصريح بهذه الضرورة العلمية وتَبْوِئَتِها مكانتها التي تستحق.

والضرورة العلمية في نظري هي خروجٌ على القياس أو المستوى المطَّرد من الاستعمال ضماناً للدقة العلمية.

وهي كالضرورة الشعرية عند سيبويه، بلوغ مستوى من التعبير مبلغ مستوى آخر، وعلتها – كما أورد السيوطي في الأشباه والنظائر – "التشبيه لشيء بشيء أو الرد إلى الأصل"[٧٢]. فهي تسير في أحد اتجاهَيْن متعاكسَيْن كما أسلفنا لك القول في الضرورة الشعرية.

ولكننا نريد لها أن تتبنَّاها الجماعة اللغوية العلمية – إن صح هذا التعبير – فتستمد من السلطان الجماعي قوةً كقوة الخارج على الأصل فيما أخرجته الجماعة اللغوية عن أصله حتى أصبح أَرْسَخَ من الأصل.

ولا يتم مثل هذا التعبير عن رأي الجماعة اللغوية العلمية إلا بتوحيد المصطلحات، ومن هنا تبرز أهمية المعاجم الموحَّدة أو الموحِّدة، ومن أشهرها المعجم العسكري الموحّد والمعجم الطبي الموحّد، كما تبرز أهمية تبيين القواعد التي اتّبعتها هذه المعاجم الموحدة. وتتضمن هذه القواعد فيما تتضمنه ما تلجئ إليه الضرورة العلمية من خروج الأصل أو إجراء ما فارق الأصل على أصله، مستفيدين من التجارب التي سبقت في مضمار الخروج الجماعي على الأصل، وفي مضمار الضرورة الشعرية التي تسير في اتجاه الخروج الفردي على الأصل أو في اتجاه الرجوع إلى الأصل سواء بسواء.

وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك.

1. قضية اختلاف اللغات وكلها حجة:

وهذا العنوان مأخوذ من ابن جِنِّي في الخصائص[٧٣]، وقد قال فيه:

"اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك، ولا تحظُره عليهم، ألا ترى أن لغةَ التميميّين في ترك إعمال (ما) يقبلها القياس، ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك، لأن لكل واحد من القومَيْن ضرباً من القياس يؤخذ به، ويُخْلَدُ إلى مثله، وليس لك أن تردَّ إحدى اللغتَيْن بصاحبتها، لأنها ليست أحقَّ بذلك من رَسِيلَتِها، لكن غاية مالَكَ في ذلك أن تتخيَّر إحداهما، فتقويِّها على أختها، وتعتقد أن أقوى القياسين أَقْبَلُ لها، وأشدُّ أُنساً بها، فأما ردُّ إحداهما بالأخرى فلا، أفلا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم "نزل القرآن بسبع لغات كلها كافٍ شاف" هذا حكم اللغتَيْن إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتَيْن متراسلتَيْن، أو كالمتراسلتَيْن، فأما أن تَقِلَّ إحداهما جداً، أو تكثر الأخرى جداً، فإنك تأخذ بأوسعهما روايةً، وأقواهما قياساً، ألا تراك لا تقول (مررتُ بَكَ) ولا (المالُ لِكَ) قياساً على قول قضاعة: (المالُ لِهُ ومررتُ بِهُ)، ولا تقول: أكرمْتُكِشْ قياساً على لغة من قال: مررت بِكِشْ وعجبت منكِشْ..".

ثم قال: "فإذا الأمر في اللغة المعوَّل عليها هكذا وعلى هذا، فيجب أن يقلَّ استعمالها، وأن يُتَخَيَّر ما هو أقوى وأشْيَعُ منها، إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتَيْن، فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مقبول منه غير مَنْعِيَّ عليه، وكذلك أن يقول على قياس من لغته كذا وكذا، أو يقول على مذهب من قال: كذا وكذا. وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغةٍ من لغات العرب مصيبٌ غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه" انتهى.

وقال السيوطي في الاقتراح[٧٤]:

"وفي شرح التسهيل لأبي حيان: كل ما كان لغةً لقبيلةٍ قِيْسَ عليه".

2. قضية القياس على الحديث الشريف

قال الشاطبي في شرح الألفية: "لم نجد أحداً من النحويين استشهد بحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم الذين يبولون على أعقابهم، وأشعارهم التي فيها الفحش والخنى، ويتركون الأحاديث الصحيحة.." [٧٥].

وقد نقل البغدادي في الخزانة ما ذكره البَدْرُ الدَمَاميني في شرح التسهيل، قوله: "وتدوين الأحاديث والأخبار بل وكثير من المَرْوِيَّات وقع في الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، حيث كان كلام أولئك المبدِّلين – على تقدير تبديلهم – يسوغ الاحتجاج

به، وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به، فلا فرق بين الجميع في صحة الاستدلال، ثم دُوِّنَ ذلك المبدَّل – على تقدير التبديل – ومُنِعَ من تغييره ونقله بالمعنى– كما قال ابن الصلاح – فبقي حجة في بابه"[٧٦].

3. قضية التصرف في النسبة

قد سبق أن بَيَّنَّا أن النسبة باب شذوذ وتغيير، وأن جُلَّ التغيير الذي يحدث فيها مَرَدُّه إلى ضرورة الدقة العلمية في التفريق بين منسوب ومنسوب. ومن أمثلة ذلك ضرورة النسبة إلى الجمع بلا حرج للتمييز مثلاً بين ما هو منسوب إلى مجموعة الدول وهذا هو "الدُوَلي" وبين ما هو منسوب إلى الدولة من حيث هي كيان أو إلى مؤسساتها. وقُلْ مثل ذلك في قولهم: وظائفي، وأحيائي، وحَشَرائي، ودواجِني، وأخلاقي، وجراثيمي.. وقد أجاز مجمع القاهرة النسب إلى جمع التكسير عند الحاجة كإرادة التمييز أو نحو ذلك[٧٧].

لا بُدَّ من استعمال أكثر من صيغة واحدة من صِيَغ النسبة للتفريق بين المتشابهات. فنقول "بيضي" مثلاً لما نريد نسبته إلى مادة البيضة، ونقول "بيضوي أو بيضاوي" لما نريد نسبته إلى شكل البيضة، ونقول "بيضاني" لشكل يشبه شكل البيضة ولكنه لا يطابقه وهكذا.

وقُلْ مثل ذلك في التفريق بين النسبة إلى "النواة الحمراء" فنقول "حمرائي" والنسبة إلى "الكرية الحمراء" فنقول "حمراوي" وكذا التفريق بين النسبة إلى "النواة السوداء" فنقول "سودائي" والنسبة إلى المزاج الذي ندعوه المزاج "السوداوي". وقد جاء في الهَمْع [٧٨] من باب النسب ما نصه:

"وتُقلب أيضاً واواً همزة أُبدلت من ألف التأنيث: فيقال في (حمراء وصفراء): حمراوي وصفراوي. ومن العرب من يقول: حمرائي وصفرائي من غير قلب، تشبيها بألف كساء، قال في التوشيح: وذلك قليل ردئ. نقله أبو حاتم في كتاب التذكير والتأنيث". انتهى.

وتهجين صاحب التوشيح لهذه اللغة لا يمنع القياس عليها، كما أسلفنا في ما نقلناه عن ابن جني في باب اختلاف اللغات وكلها حجة.

ويضاف إلى ما سبق: أن الكوفيين أجازوا إقرار همزة التأنيث في التثنية للفظ (حمراء) الذي ورد مثناه (حمراءان) بل قاسوا عليه.

(١) ففي شرح الأشموني – باب تثنية المقصور والممدود– [٧٩]: "والذي شذ من الممدود خمسة أشياء:الأول (حمراءان) حكى النحاس أن الكوفيين أجازوه..".

(٢) وفي الهَمْع[٨٠] في تثنية الممدود:

"وأما الممدود فإن كانت همزته مبدلةً من ألف التأنيث قُلِبَتْ واواً نحو (حمراوان) وورد تصحيحها وقلبها ياء، حكى أبو حاتم (حمراءان وحمرايان) فقاس على ذلك الكوفيون".

ولما كانت التثنية وجمعا التصحيح والنسب، تجرى مجرى واحداً، كما قال الشاطبي، احتمل أن يكون للكوفيين في النسب وجمعَي التصحيح مثل قياسهم في التثنية من حيث إقرار همزة التأنيث.

والأمثلة في باب النسبة كثيرة منها على سبيل المثال العضو الذي نسميه "الاثنا عشري" فليس يخفى مبلغ اللبس الذي يمكن أن يحصل لو اتبعنا فيه القاعدة التقليدية في النسب فقلنا "الاثنِيّ".

4. قضية المعرّب والدخيل

في "اللسان": " تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على مناهجها"[٨١].

والكلمات التي تنطق بها العرب – في ظني– كالعرب نفسها، منها كلمات عاربة– كالعرب العاربة وهم الخُلَّص منهم. ومنها كلمات متعرّبه أو مستعربة– كالعرب المستعربة وهم الدخلاء الذين ليسوا بخُلَّص. قال الليث: "والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيهم بَعْدُ فاستعربوا". وقال الأزهري: "المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيئاتهم وليسوا بصرحاء فيهم"[81].

فهذه الكلمات المستعربة كذلك كلمات أعجمية دخيلة في العربية وحكت هيئتها ونطقت بها العرب لسانها.

قال أبو هلال العسكري في التلخيص: [٨٢]

"والكلمة الأعجمية إذا عُرِّبَتْ فهي عربيّة! لأن العربيّ إذا تكلّم بها معرَّبة لم يُقَل إنه يتكلم بالعجمية!" وقد أحسن في قوله هذا وأصاب لِلَّه درُّه.

وقال الشوكاني في "إرشاد الفحول" في حديثه عن المعرَّب هل هو موجود في القرآن أم لا: "والمراد به ما كان موضوعاً لمعنى عند غير العرب ثم استعملته العرب في ذلك المعنى... ومثل هذا لا ينبغي أن يقع فيه خلاف، والعجب ممن نفاه. وقد حكى ابن الحاجب وشُرَّاح كتابه النفي لوجوده عن الأكثرين ولم يتمسكوا بشيء سوى تجويز أن يكون ما وجد في القرآن من المعرب مما اتفق فيه اللغتان العربية والعجمية. وما أبعد هذا التجويز! ولو كان يقوم بمثله الحجة في مواطن الخلاف لقال من شاء ما شاء بمجرد التجويز، وتطرق المبطلون إلى دفع الأدلة الصحيحة بمجرد الاحتمالات البعيدة.. وقد أجمع أهل العربية على أن العُجمة علة من العلل المانعة للصرف في كثير من الأسماء الموجودة في القرآن.. وفي القرآن من اللغات الرومية والهندية والفارسية والسريانية ما لا يجحده جاحد ولا يخالف فيه مخالف"[٨٣].

"ولا ضيرَ في التعريب – كما يقول الأمير مصطفى الشهابي – كلما مست الحاجة إليه، وكلما تعذر العثور على كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية، أو تعذر إيجاد كلمة عربية تفيد معناها بوسائل الاشتقاق المعروفة" [٨٤].. وأُضيف "أو حين تكون الكلمة العربية المقترحة أشد عجمة من الكلمة الدخيلة، أو يكون اللفظ مما اشتهر وشاع استعماله، أو يكون اللفظ من الألفاظ التي اكتسبت صفة العالمية بدخوله كما هو في كل لغات العالم أو جُلَّها".

وفي موضوع التعريب هذا عدد من القضايا الفرعية أشير منها إلى أربع:

الأولى: عدم ضرورة التقيد بالأوزان العربية في المعرَّبات. قال ابن السيد في الاقتضاب[٨٥]: قد حكى أبو حنيفة في كتاب النبات أنه يقال سَرِجين وسَرِقين بالجيم والقاف وبفتح السين وكسرها، وسَرْجَنْت الأرض وسَرْقَنْتها وهي لفظة فارسية، ولذلك جاءت مخالفة لأوزان كلام العرب لأنه ليس في كلام العرب فَعليل ولا فَعلين بفتح الباء. وهذا كقولهم "آجُرّ" و "سَيْسَنْبَر" و "شاهَسْفَرَم" و "مرزجوش" و "مرزَنْجوش" ونحو ذلك من الألفاظ المعرفة المخالفة لأمثلة الكلام العربي وهي كثيرة. ورأيت ابن جني قد قال في

بعض كلامه: الوجه عندي أن تكسر الشين من شطرنج ليكون على مثال جِرْدَحْل. وهذا لا وجه له، وإنما كان يجب ما قاله هنا، لو كانت العرب تصرف كل ما تعربه من الألفاظ العجمية إلى أمثلة كلامها. وإذا وجدنا في ما عربوه أشياء كثيرة مخالفة لأوزان كلامهم فلا وجه لهذا الذي ذكره، وقد ورد من ذلك ما لا أحصيه كثرةً، ومنه قول الأعشى:

لنا جُلَّسانٌ عندها وبَنَفْسَجٌ وسَيْسَنْبَرٌ والمَرْزَجُوشُ منمنما
وآسٌ وخيريٌّ ومَرْوٌ وسوسنٌ إذا كان هِنْزَمْنٌ ورحتُ مُخَشَّما
وشاهَسْفَرَمْ والياسمين ونرجسٌ يصبِّحنا في كل دَجْنٍ تغيَّما
وسَنْسَقُ سِينين وعودٌ وبَرْبَطٌ يجاوبه صَنْجٌ إذا ما ترَّنما

على أن هذا لا يعني الترحيب بالإكثار من هذه الكلمات التي لا تواكب أمثلة كلام العرب، بل العكس هو الصحيح، لأن نقلها بهذه الأوزان الناشزة يجعل من العسير بل المتعذر جمعها والنسبة إليها والاشتقاق منها. والاشتقاق أمر مطلوب في أغلب الأحيان، مما يكون الحَكَمَ في تعريب بعض الألفاظ. فكلمة "كمبيوتر" العالمية لا يمكن أن تَشْتَقَّ منها لو استعربَتها ما يقابل computerized و computerization، ولذلك رجَّح الجمهور ترجمتها بكلمات متعدّدة أشهرها الحاسوب لأنك تقول منها "مَحَوْسَب" و "حَوْسَبَة" وهكذا.

بل إن بعض المشتغلين بالمصطلحات – وأنا منهم – ليرى أن من الخير إلباس اللفظة المستعربة العباءة العربية، ومحاولة إيجاد وجه شَبَهٍ بينها وبين بعض الألفاظ العربية. فأنت حين تقول للقارئ العربي أن "فرس" في لسان العرب تعني "قتل" وأنك تستطيع أن تشتق منها على زنة "فَيْعول" فتقول "فَيْروس" لهذا الكائن الذي يسبب كثيراً من الأمراض القتَّالة، تجعله أكثر تقبلاً لهذا اللفظ وأكثر إيلافاً له. ومثل ذلك حينما تقول له "إنظيم" اشتقاقاً من التنظيم على زِنَة "إفعيل"لهذا المركب الذي يكون له الدور الأول في تنظيم التفاعلات الخلوية والأحداث الحيوية. ولكنَّ شرط ذلك كله أن لا يفضي بنا إلى التنطعّ![٨٦]

القضية الفرعية الثانية: عدم ضرورة إدخال بعض الأحرف على الحروف العربية. فالأمم الأخرى لا تخترع حروفاً جديدة لرسم ما تقترضه من لغات أخرى، وإنما تكتب الحرف بأقرب حرف إليه من لغتها. فالإغريقية مثلاً تنقل الدال "ذلتا" والباء "فيتا" ولا تبتكر أيَّ حرف جديد، وقُلْ مثل ذلك في سائر اللغات. وما إدخال اللغة العربية بحاجة إلى مثل هذه الأحرف الدخيلة. وعلى هذا فينبغي أن تعرّب الباء الفارسية " P" التي بين الباء والفاء "باء" وتعرّب الفاء " V" التي بين الباء والفاء "فاء". أما الحرف المُشْكِلُ الذي بين الكاف والقاف " G" فقد نقله العرب الأقدمون غنياً في الغالب، وهو الذي نراه، أما نقله جيماً فغير منطقي لأن معظم الشعوب العربية تلفظ الجيم إما جيماً معطَّشة " dj" كسكان صعيد مصر والعراق وبلدان المغرب، أو جيماً مخفّفة " j" كسكان الشام، ولا ينطقها جيماً غيرَ معطَّشة "g" إلا سكانُ القاهرة وبعض القبائل البدوية وهم قِلَّة لا تتجاوز عُشْرَ الفريقَيْن الثاني والثالث. ونُطْقُ هذه المعرَّبات بالجيم المعطَّشة أو المخفَّفة قبيح.

أما سائر الحروف فقد كتب فيها عدد من العلماء الأعلام بحوثاً مجوّدة، كالدكتور أمين المعلوف في بحث له بمجلة المقتطف، والدكتور أحمد عيسى في كتاب له عنوانه "التهذيب في أصول التعريب" وأَتَمُّ بحث فيه هو الذي جاء في الجزء الرابع من مجلة مجمع اللغة العربية في مصر، ووضع لها طائفة من القواعد.

ولكن التطبيق الحرفي لهذه القواعد يولّد كلمات كثيراً ما تكون شديدة البُعد عن الأصل، أو نابيةً عن الذوق العربي، أو نائيةً بالكلمة عن الاقتراب من موازين العرب، مما يجعل من العسير الاشتقاق منها عند الحاجة، فمن العسير على ناقل الألفاظ من الفرنسية أو الإنجليزية أن ينقل حرف الأبسيلون (Y) واواً مع علمه بأنه يُلفظ فيهما ياء، ومن المستثقل في الغالب نقل الحرف (T) طاء – كما يقول الأمير الشهابي– [٨٧] ولا حاجة بنا إلى هذا التفخيم دائماً في نقل العلوم الحديثة بل ينبغي الرجوع إلى الذوق وإلى ما تألفه الأذن، فقد ألفت آذاننا مثل كلمات تلفون وتكنيك وكيلومتر وغيرها وكلها بالتاء، كما ألفت كلمات طبغرافية وطربيد وطن وأشباهها من المعربات الحديثة بالطاء.

وثمة **قضية فرعية ثالثة** تتعلق بهذه المعرَّبات. فالذي نراه أن من الخير اختيار اللفظ الأسهل من بين مختلف اللغات الأجنبية لنقله إلى العربية بأخف ما يمكن على

اللسان العربي، فنقول مثلاً في مصطلح الكيمياء "هدروكسيد" لا "هايدروكساید" ونقول "يورانيوم" لا "أورانيوم" ونقول "بزموت" لا "بِزْمَثْ" وهكذا.

ثم إنه لمن الخير أيضاً في رأينا الإكثار من استعمال الأحرف اللينة في الكلمات المعربة حتى لا يلتبس اللفظ لا سيما والشكل "التشكيل" غير متوافر في كثير من المَنَاسخ وبعض المطابع، ولا نتحرَّج في استعمال هذه الأحرف اللينة من التقاء الساكنين، فالمد اللازم في القرآن الكريم يلتقي فيه حرف اللين بحرف ساكن يؤلف الجزء الأول من الحرف المشدد. كذلك لا نرى حاجة لبدء بعض الكلمات المعربة بألف تفادياً للبدء بساكن، بل نكتفي بالاختلاس في نطق هذا الحرف الساكن.

أما **القضية الفرعية الرابعة** فهي أن العرب حين بدأت بنقل العلوم إلى لغتها، لم تقبل أن يكون المصطلح حجر عثرة في سبيل هذا النقل. فكان النقلة يرتجلون تعريب كثير من الألفاظ التي لم يكونوا يجدون لها مقابلاً عربياً. ولكن العلماء كانوا يتخلصون شيئاً فشيئاً من كثير من هذه المعربات المرتَجلة كلما وجدوا لفظةً عاربة تصلح لها. فقد قالوا "الأورطى" مثلاً بذلك شريان الجسم الأعظم ثم وجدوا أن "الأبهر" يصلح لتأدية هذا المعنى فأحلوه محله. كذلك قالوا "الباريطون" لذلك الغشاء الذي يغلف أحشاء البطن ثم وجدوا أن لفظة "الصفاق" تصلح لذلك فأحلوها محله، بل دخلت لفظة الصفاق مُلَتَّنةً في اللغات الأجنبية وبقيت مستعملة فيها بهذا المعنى إلى عهد قريب فأنت تجدها هكذا "Siphac" في طبعة معجم "دورلاند" قبل عشرين سنة وفي شرحها "اسم للبريتوان لم يَعُدْ يستعمل"(٨٨).

5. قضية التضمين

يقول ابن جني في الخصائص(٨٩): "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بحرف، فإن العرب تتسع فتوقع أحد الطرفين موقع صاحبه، مجازاً وإيذاناً بأن هذه الفعل في معنى ذلك الآخر كما صححوا "عَوِر" و"حَوِل" إيذاناً بأنهما بمعنى "اعْوَرّ" و"أحْوَلّ" واجْتَوَرُوا إشعاراً بأنه بمعنى "تجاوروا"، وكما جاؤوا بمصادر بعض الأفعال على غير ما يقتضيه القياس حملاً لذلك على فعلٍ هو في معناه، كقوله: "وإن شئتم تعاوَذْنا عِوَاذاً" وكان القياس "تعاوُذاً" فجاء به على "عاوَذ" إذْ كان

"تعاوذ" راجعاً إلى معنى "عاوَذ.."، ثم قال بَعْدُ: "ووجدت في اللغة شيئاً كثيراً لا يكاد يُحاط به، ولعلّه لو جمع أكثره لا جميعه لجاء كتاباً ضخماً" أو كما قال الشيخ الاسكندري: "ما ورد من التضمين كثير يجمع في مئتين أوراقاً"[٩٠].

ويقول ابن جني في المحتسب: "متى كان فعل من الأفعال في معنى فعل آخر، فكثيراً ما يجري أحدهما مجرى صاحبه، فيُعدَل في الاستعمال به إليه، ويُحتذى في تصرفه حذو صاحبه، وإن كان طريق الاستعمال والعرف ضد مأخذه!" [٩١].

ويقول ابن هشام في المغني: "وقد يُشرِبون لفظاً معنى لفظ آخر فيعطونه حكمه، ويسمّون ذلك تضميناً" ثم يقول: "وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين" [٩٢]. فالتضمين إذن إشراب لفظ معنى لفظ آخر واعطاؤه حكمه[٩٣].

وقد اختلف علماء العربية في التضمين فقال جماعة من البصريين بقياسيته على أنه ضرب من ضروب المجاز، والمجاز قياس، وإذا كان التوسع في الفعل كان التضمين من قبيل المجاز المرسل. وقال ابن جني – كما روى محمد الأمير في حاشية المغني: "لو جُمِعَتْ تضمينات العرب ملأت مجلدات" وعقَّب على ذلك بقوله: "فظاهرة القول بأنه قياس"[٩٤].

وفي حاشية الصبان على الأشموني [٩٥] تفريقٌ بين تضمين نحوي هو إشراب كلمة معنى كلمة أخرى تؤدي المعنَيَيْن، وأنه قياس عند الأكثرين، وتضمين بياني بتقدير حال يناسبها المعمول بعدها وهو قياس اتفاقاً.

ومن خير ما ورد فيه قول الإمام الأكبر السيد محمد الخضر حسين: "للتضمين غرض الإيجاز. وللتضمين قرينة هي تعدية الفعل بالحرف وهو يتعدى بنفسه، أو تعديته بنفسه وهو يتعدى بالحرف. وللتضمين شرط هو وجود مناسبة بين الفعلين. وكثرةُ وروده في الكلام المنثور والمنظوم تدل على أنه أصبح من الطرق المفتوحة في وجه كل ناطق بالعربية، متى حافظ على شرطه وهو مراعاة المناسبة"[٩٦].

وقد أقرَّ مجمع القاهرة قياسه بشروط ثلاثة: (1) تحقيق المناسبة بين الفعلين، و (2) وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس، و (3) ملاءمة التضمين للذوق العربي.

وفي اعتقادي أن إقرار قياسية التضمين أمر مفيد في كثير من المصطلحات العلمية.

6. قضية تشبيه الحرف بالحرف

جاء في اللسان [٩٧]: "والجمع [جمع المنارة] "مَنَاوِر" على القياس و"مَنَائِر" مهموز على غير قياس، قال ثعلب: إنما ذلك لأن العرب تشبه الحرف بالحرف، فشبهوا منارة وهي مفعلة من النور بفتح الميم، بفَعَالة، فكسّروها تكسيرها كما قالوا أمكنة فيمن جعل مكاناً من الكون، فعامل الحرف الزائد معاملة الأصلي فصارت الميم عندهم في "مكان" كالقاف من "قَذال"، قال: ومثله في كلام العرب كثير.. الجوهري: الجمع "مناوِر" بالواو لأنه من النور، ومن قال "منائر" وهَمَز فقد شبه الأصلي بالزائد كما قالوا "مصائب" وأصله "مصاوِب".

وفي اللسان أيضاً: "قال الأزهري: الأكثر في كلام العرب في جمع مسيل الماء "مسايل" غير مهموز، ومن جمعه أمْسِلَة ومُسْلاً ومُسلاناً فهو على تَوَهُّم أن الميم في مسيل أصيلة وأنه على وزن فعيل، ولم يرد مفعل، كما جمعوا مكاناً أمكنة، ولها نظائر"[٩٨].

7. قضية مصادر المصطلحات

نقل ابن جني في الخصائص قول سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "كان الشعر عِلْمَ القوم، ولم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهِيَت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب في الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوَّن، ولا كتاب مكتوب. وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عنهم كثيره"[٩٩].

وقال أبو عمرو بن العلاء – وهو كما يقول ابن سلام – أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها [١٠٠]، قال: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"[١٠١].

من أجل ذلك لا نرى الاقتصار في مصادر المصطلحات على المعاجم، فالمعاجم وحدها لا تشتمل على كل كلام العرب. ويعجبني ما رواه ابن منظور في اللسان في مادة (ب خ ع) عن ابن الأثير: "وطال ما بحثت عنه في كتب اللغة والطب والتشريح فلم أجد البخاع بالباء مذكوراً في شيء منها"[١٠٢]. فكتب الطب والتشريح إذن مصدر من مصادر ابن الأثير إلى جانب كتب اللغة.

ومن الأمثلة على ذلك أن كلمة "الحدثة" في جميع المعاجم تعني ما نطلق عليه في مصطلح اليوم اسم "القزحية"، ولكنك تجد في كتاب "المنصوري" للرازي ما يلي – في وصف هيئة العين–: ".. ويعلو الرطوبة البيضية جسم رقيق مخمل الداخل حيث يلي البيضية، أملس الخارج، ويختلف لونه في الأبدان فربما كان شديد السواد، وربما كان دون ذلك، وفي وسطه حيث يحاذي الجليدية ثقب يتسع ويضيق في حالٍ دون حال بمقدار حاجة الجليدية إلى الضوء، فيضيق عند الضوء الشديد ويتَّسع في الظلمة، وهذا الثقب هو الحدقة"[١٠٣]. و"الحدقة" كذلك في كثير من كتب الطب والتشريح.

ومثال آخر، هو ذلك الغشاء من أغشية الجنين الذي يقال له بالأجنبية allantois والذي حار الأطباء المحدثون في ترجمته فقالوا: الوشيق"، وقالوا: "اللقانقي" تشبيها بهذه الأمعاء التي تؤكل، وقال بعضهم بل هي "اللفائفي" تحرَّفت إلى "اللقانقي" وهكذا، إلى أن رأيت في كامل الصناعة لعلي بن العباس قوله: "وقد يتولد على الجنين من داخل غشاءان، أحدهما يقال له "السقاء" وهو اللفائفي، والثاني السلي. فأما السقاء فهو دون المشيمة ويَتَرَاقى إلى قرنَي الرحم، ويشبه من شكله باللفافة وهو نافذ إلى مثانة الجنين، ومنفعته أن يقبل بول الجنين.." [١٠٤]. فقد أطلق على هذا الغشاء اسم "السقاء" كما ترى، وهي كلمة جميلة ولكنك لا تجدها في المعاجم بهذا المعنى فهل ندعها؟

ومثل ذلك بعضُ ما تواطأ عرب العصر الحاضر على استعماله بالمعنى نفسه على اختلاف أمصارهم وأقطارهم، كمصطلح "الكاحل" الذي تجده مستعملاً في جميع البلدان

العربية بمعنى "ذلك الجزء من الطرف السفلي الذي يعلو القدم"، وفي ظني أن مثل هذا التواطؤ يؤثّل لهذا الحرف في لغة الضاد وينأى به عن عاميِّ الكلام.

وفي مقابل ذلك ينبغي أن تؤخذ المصطلحات من المعجمات بحيطة وتدقيق. فلهذه المعجمات – من وجهة نظر العلم الحديث – عيوب كثيرة أتى على ذكرها الأمير الشهابي في كتابه عن المصطلحات العلمية(١٠٥). ومن أهمها خلوها من ألوف مؤلفة من أسماء الأحياء التي لم يعرفها الأقدمون، وخلوها من عدد لا يستهان به من الألفاظ المولدة في أيام العباسيين وبعدها، كبعض التي ذكرها الخوارزمي في "مفاتيح العلوم"، والجواليقي في "المعرب من الكلام الأعجمي"، والخفاجي في "شفاء الغليل"، والمستشرق دوزي الهولندي في معجمه. ومن أهم هذه العيوب الخلط في أسماء الأحياء وهو أمر طبيعي لحدوثه قبل نشوء التصانيف الحديثة. فالطير مثلاً اسم لجماعة ما يطير مما دعا ابن سيدة إلى أن يُدرج في جملة الطير: الجراد والزنابير والذباب والنحل وسائر الحشرات الطيارة. والحشرة التي هي اليوم اسم لحيوان من المفصليات له رأس وصدر وبطن وستة قوائم، هي في معاجمنا الدواب الصغار. فالقنفذ عندهم حشرة، والفأر حشرة وكذلك الجرذ والحرباء والعظاية وغيرها. ولعل من أكبر هذه العيوب النقص في تحلية الأحياء أو تعريفها. فالسعتر مثلاً نبت معروف، والحنطل معروف، والسَمُر شجر معروف، والكتان معروف، والسماق معروف، والسوسن هذا المشموم، والشحرور طائر.. وأحياناً تفسر الكلمات العربية بألفاظ أعجمية، فالحَبَق هو الفوتنج، وحبق الراعي: البرنجاسف، والبندق: الجلّوز، والشمار: الرازيانج، والفصفصة: الإسبست، والزبل: السرقين والسرجين، والمِحَسَّة: الفرجون. والناس اليوم يعرفون الحبق والبندق والشمار والفصفصة والزبل والمحسة، ويجهلون الأسماء الدخيلة المقابلة لها.

*
* *

بعد هذه القضايا المهمة التي اقتطفتها بإيجاز يناسب المقام، وعدَّيت عن كثير غيرهما مما يستحق أن يعالج في بحث برأسه، أرى لزاماً علي أن أعرض – عرضاً موجزاً – طريقة العمل في لجنة توحيد المصطلحات الطبية التي قامت على إصدار المعجم الطبي الموحد.

والمعجم الطبي الموحد – بكل تواضع – مَعْلَمٌ من المعالم المهمة على درب تعريب العلوم الصحية في العصر الحديث، أي: نقلها إلى اللسان العربي، والتفاعل معها من قِبَل الفكر العربي، واستيعابها من قبل عامة العرب وخاصتهم، كل بحسبه.

وقد وضعته لجنةٌ ألّفها في الأصل اتحاد الأطباء العرب سنة ست وستين ثم تحولت إلى لجنة المصطلحات الطبية العربية في منظمة الصحة العالمية بطلب من الاتحاد ومن مجلس وزراء الصحة العرب. وضمَّت اللجنة في مرحلتيها عدداً من "المؤمنين بوجوب التوحيد المتمكّنين من المعرفة بالطب واللغة، من الأقطار التي فيها كليات طب وطنية راسخة القدم"[١٠٦] وكان منهم عدد من المجمعيين الأعضاء في عدة مجامع لغوية عربية في وقت معاً، وفي طليعتهم فقيدا العلم والفضل والطب واللغة، الأستاذان الجليلان "حسني سبح" و"محمد أحمد سليمان" تغمدهما الله بواسع رحمته وأحسن مثوبتهما.

وقد سارت اللجنة في عملها مستهدية بما سار عليه السابقون من النَقَلَة في صدر الإسلام والتابعين لهم بإحسان حتى عصر النهضة الحديثة، وبما وضعته مجامع اللغة العربية من قواعد، وبما اتخذه الذين علَّموا الطب في العصر الحديث بالعربية من ضوابط ألزموا بها أنفسهم وساروا عليها.

فمِمّا سار عليه النقلة الأقدمون: (1) تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية، وتضمينها المعنى العلمي الجديد، و(2) اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معرَّبة للدلالة على المعنى الجديد، و(3) ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها، و(4) استعراب كلمات أعجمية وعَدُّها صحيحة.

ومّما وضعته المجامع – ولا سيما مجمع القاهرة–: (1) التوسع في المولَّد من الكلم ولا سيما ذلك القسم الذي جرى فيه المولدون على أقيسة كلام العرب، من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك، وحكمه أنه عربي سائغ، و(2) إجازة استعمال بعض الألفاظ الأعجمية – عند الضرورة– على طريقة العرب في تعريبهم، و(3) الاتفاق على قياسية عدد من الصيغ الاشتقاقية المهمة كصيغة فِعَالة للحرفة أو شبها، وصيغة مَفْعَلة للمكان الذي تكثر فيه الأعيان، وصيغتي فُعَال

وفَعَل للمَرَض، وصيغة فَعَّال للاحتراف أو ملازمة الشيء، وصيغة فَعَلان لما يدل على تقلّب واضطراب... وغيرهما كثير، و(4) إقرار قياسية المصادر الصناعية، بأن يُزاد على الكلمة ياء النسب والتاء، و(5) إجازة الاشتقاق من أسماء الأعيان – للضرورة– في لغة العلوم، و(6) تفضيل العربي على المعرَّب القديم إلا إذا اشتهر المعرب، وتفضيل المصطلح العربي القديم على الجديد إلا إذا شاع الجديد، وتفضيل الكلمة الواحدة على الكلمتين فأكثر إذا أمكن، وإذا لم يمكن تفضل الترجمة الحرفية، ووجوب الاقتصار بقدر الإمكان في المصطلحات العلمية والفنية والصناعية على اسم واحد خاص لكل معنى، و(7) استعمال لا النافية مركبة مع الاسم المفرد إذا وافق هذا الاستعمال الذوق ولم ينفر منه السمع، و(8) جواز النحت والتركيب المزجي عندما تلجئ الضرورة العلمية إليه، و(9) جواز جمع المصدر عندما تختلف أنواعه، و(10) ترجمة اللاحقة الدالة على التشبيه بالنسب مع الألف والنون.. وغير ذلك كثير.

فكانت اللجنة تعمد قبل كل شيء إلى تحرّي لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الأعجمي من بين الألفاظ العلمية المبثوثة في المعاجم العربية أو المستعملة في الكتب العلمية القديمة، مفضِّلةً في ذلك الصالحَ من الأقدم مما يليه في القِدَم، ابتداءً بأطباء العرب الأقدمين في صدر الحضارة العربية الإسلامية كالرازي وابن سينا وعلي بن العباس ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم في مشرق الدولة العربية الإسلامية ومغربها. ثم ما استعمله الأساتذة الترك في عهد الدولة العثمانية إذْ كانت مصطلحاتهم كلها عربية أو تكاد، ثم ما استعمله أساتذة كلية الطب في أبي زعبل ثم قصر العيني زمن محمد علي، ثم ما استعمله أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت أيام كانت تدرّس الطب بالعربية، ثم ما استعمله أساتذة الجامعة السورية – جامعة دمشق– في مطالع هذا القرن، ثم ما أقرّه مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وإذا كان اللفظ العلمي الأعجمي جديداً لم تجد له اللجنة مقابلاً في لغة الضاد، ترجمَتْه بمعناه كلّما كان قابلاً للترجمة، أو ابتكرت له لفظاً عربياً مقارباً بالاشتقاق أو المجاز أو النحت أو التركيب المزجي، مستأنِسةً في ذلك كله بما ابتكره السلف، على الترتيب الذي أسلفنا ذكره.

وإذا تعذر وضع لفظ عربي باللجوء إلى كل ما تقدم، عَمدت اللجنة إلى التعريب أو قُل: الاستعراب، مراعيةً قواعده على قدر المستطاع.

وفي ما يلي خلاصة لأهم الأسس التي جرت عليه اللجنة في عملها.

١. استعملت اللجنة لفظة عربية واحدة مقابل التعبير الأجنبي، ولم تستعمل المترادفات إلا في ما ندر وعند الضرورة، وبذلك يتحقق توحيد المصطلحات. وقد عمدت اللجنة في بعض الألفاظ الشائعة في بعض البلدان العربية والتي فضَّلت عليها اللجنة مصطلحات أخرى، إلى أن تكتب المصطلح المفضول بين قوسين بعد المصطلح المفضَّل، وبأحرف أصغر حجماً، وذلك تسهيلاً لائتلاف المصطلح المفضل من جهة، مع الإيحاء بضرورة العدول عن المصطلح المفضول في الوقت نفسه.

٢. في حالة وجود عدة مترادفات أجنبية للمفهوم الواحد لأسباب تاريخية، عمدت اللجنة إلى ترجمة أصلحِها لتأدية المعنى، ووضعه في مقابلها جميعاً، مع الإشارة بجانب المترادفات الأخرى إلى التعبير الذي اتُّفِقَ على ترجمته، بوضعه بعد علامة المساواة (=) بين قوسين.

٣. اختارت اللجنة ترجمة اللفظ الأجنبي الذي هو أفضل في تأدية المعنى، فترجمت اللفظ الإنكليزي أحياناً والفرنسي أحياناً، مستهدفة دائماً دقة المعنى ووضوحه.

٤. استعملت اللجنة الألفاظ العربية المتداولة أو التي سبق أن استعملها علماء العرب الأقدمون، إذا كانت تفي بالغرض العلمي، وإلا اجتهدت في وضع لفظ جديد مناسب. وأخذت اللجنة بنظر الاعتبار المصطلحات التي وضعتها المجامع، واللجان المتخصصة، والعلماء.

٥. اجتهدت اللجنة أن تبتعد عن الكلمات المُثْقَلَة بعدة معانٍ، فحاولت أن تجد ألفاظاً أخرى لا تشترك مع سواها بقدر الإمكان، ولا سيّما تلك التي تشترك في حقل دلالي واحد. ومن أجل ذلك أعدَّت اللجنة عدداً من القوائم الدلالية، أدرجت في كل منها مجموعة الكلمات التي تشترك في حقل دلالي واحد.

٦. ثَبَّتَت اللجنة سوابق ولواحق تمَّ الالتزام بها وذكرتها في أول المعجم، والتزمت قدر الإمكان بالصيغ القياسية، ولا سيّما ما أقرَّته المجامع.

٧. لجأت اللجنة أحياناً إلى النحت أو التركيب المزجي، إذا كانت اللفظة المنحوتة مفهومة مقبولة، أو شائعة، أو منسوبة.

٨. لم تجد اللجنة حرجاً في استعمال الكلمات الدخيلة "الأجنبية المعربة" حين اللزوم، ولا سيما حين تتعذر تأدية المعنى المراد، أو حين تكون الكلمة العربية المقترحة أشد عُجْمَةً من الكلمة الدخيلة، أو يكون اللفظ مما اشتهر وشاع استعماله، أو يكون من الألفاظ التي اكتسبت صفة العالمية بدخوله كما هو في كل لغات العالم أو جُلِّها.

٩. التزمت اللجنة في هذه الكلمات الدخيلة أو المعربة أن تختار اللفظ الأسهل من بين مختلف اللغات الأجنبية، ولا سيّما اللاتينية والإنكليزية والفرنسية، دون التزام لغة أجنبية واحدة.

١٠. لم تجد اللجنة داعياً لاستعمال حروف غير الحروف العربية كالباء والفاء، وإنما نقلت الحرف إلى أقرب حرف عربي إليه، فرسمت "الباء" باء، و"الفاء" فاء. أما حرف "G" فقد عربته اللجنة دائماً "غينا"، إلا إذا كان يلفظ جيماً صحيحة لا جيما قاهرية.

١١. تصرفت اللجنة في صيغ النسبة للتمييز أو منع اللبس، كما استجازت النسبة إلى المفرد والجمع.

١٢. على الرغم من أن المعجم قد ضُبِطَ بالشكل ضبطاً كاملاً، فقد أخذت اللجنة في الاعتبار صعوبة توافر الشكل في المطابع والمَنَاسخ، فأكثرت من استعمال الأحرف اللينة في الكلمات المعربة حتى لا يلتبس اللفظ، واستغنت عنها إذا لم يكن ثمَّة التباس، ولم تتحرج – في استعمال هذه الأحرف اللينة– من التقاء الساكنَيْن مستأنِسةً بالمد اللازم. ولم تجد اللجنة حاجة لبدء الكلمات الساكنة الأول بألف، مكتفيةً بالاختلاس في نطق هذا الحرف الساكن.

١٣. حرَصت اللجنة في استعراب الكلمة على أن تضعها في صيغة يسهل جمعها والنسبة إليها والاشتقاق منها، وفضَّلت عدم استعرابها إن لم تتحقق فيها هذه الشروط.

١٤. في الألفاظ المقتبسة من علوم أخرى، تبنَّت اللجنة المصطلحات التي وضعها أصحاب كل اختصاص في اختصاصهن ولا سيَّما ما تم توحيده. أما العلوم التي لم

يتم توحيد مصطلحاتها، فقد سمحت اللجنة لنفسها بأن تختار واحداً من بين المصطلحات المتداولة، ريثما يتم التوحيد فتلتزم به.

١٥. توسعت اللجنة في استعمال لام الإضافة ضماناً لوضوح المصطلحات التي تتألف من جملة، ففضلت مثلاً أن تقول: "الطبقة الحبيبية للبشرة" لا "طبقة البشرة الحبيبية" وقال: الرأس الأمامي للعضلة ذات الرأسين" لا "رأس العضلة ذات الرأسين الأمامي". واستأنست في ذلك بأن من مواضع اللام أن تكون بمعنى "من" وذلك قولهم: "سمعت لزيد صياحاً" أي: من زيد صياحاً [١٠٧]. كما توسعت في استعمال اللام الأخرى التي تكون موصلة لبعض الأفعال إلى مفعولها [١٠٨] فقالت مثلاً: "العامل المطلق للهرمون المنبِّه للجريب".

١٦. فضَّلت اللجنة تقدير محذوف في بعض المصطلحات التشريحية التي تتألف من جملة، على التركيب المزجي أو النحت، فقالت مثلاً: "الشريان تحت الترقوي" بتقدير محذوف هو"العظم"، ولم تقل "الشريان التحترقوي" أو "النحت ترقوي".

١٧. ترجمت اللجنة أسماء الأجناس والأنواع في تصانيف الأحياء من حيوان ونبات وجراثيم ولم تستعربها بحجة أنها أسماء أعلام، فاسم العلم فرعٌ من اسم الفرد والفرد تحت النوع وتحت الجنس. واللجنة تستقبح مثل الجملة التالية: ينجم الخراج عن جراثيم من جنس الاستافيلوكوكس. واللاستافيلوكوكس أنواع أهمها الاستافيلوكوكس أوريوس والاستافيلوكوكس إبيديرميديس والاستافيلوكوكس هيموليتيكس. وتستحسن أن يقال: ينجم الخراج عن جراثيم من جنس العنقودية. وللعنقوديات أنواع أهمها العنقودية الذهبية والعنقودية الملهبة للبشرة والعنقودية الحالة للدم.

١٨. استجازت اللجنة التخصيص بتاء التأنيث لضرورة التمييز، فقالت اللوح واللوحة، والكيس والكيسة، والجَيْب والجَيْبة وما أشبه ذلك.

*
* *

أما بعد، فقد سئل الإمام الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فقال: "إني لأجد بيانها في قلبي ولكن ليس ينطلق به لساني". وما أدري أأحسنت الإبانة عما يعتلج في نفسي

أم أسأت، فإن تكن الأولى فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإن تكن الأخرى فإني أعتذر إليكم وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

مراجع وتعليقات

(١) من أجود ما كتب في موضوع الضرورة الشرعية كتاب نظرية الضرورة الشرعية للدكتور وهبة الزحيلي [مؤسسة الرسالة، 1399-1979].

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لعز الدين بن عبدالسلام، دار الجيل، بيروت، 1980: 5/2.

(٣) من خير ما قرأت في باب الضرورة الشعرية بحثان مجودان صدرا في وقت واحد أو يكاد، أحدهما كتاب عنوانه "الضرورة الشعرية – دراسة أسلوبية" للأستاذ السيد إبراهيم محمد [دار الأندلس، بيروت، 1979]، والثاني مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عنوانه "نظرية الضرورة في كتاب سيبويه" للأستاذ الدكتور محمد خير الحلواني [مج 55: 142-148].

(٤) كتاب سيبويه، بولاق، 1316هـ: /6.

(٥) تقريرات من شرح أبي سعيد السيرافي على كتاب سيبويه، منشور على هامش الكتاب:6/1.

(٦) كتاب سيبويه: 24/1.

(٧) كتاب سيبويه: 107/1.

(٨) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي، دار الجيل، بيروت 1973: 281.

(٩) كتاب سيبويه: 93/1.

(١٠) كتاب سيبويه: 130/1.

(١١) كتاب سيبويه: 6/1.

(١٢) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت،: ر ش د.
(١٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبدالقادر البغدادي، بولاق، 1299هـ: 118/1.
(١٤) كتاب سيبويه: 28/1.
(١٥) كتاب سيبويه: 335/2.
(١٦) كتاب سيبويه: 8/1-13.
(١٧) الكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب بن عباد، مكتبة القدسي، 1349هـ، ص: 223-224.
(١٨) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب، 1952-1956م.
(١٩) الصاحبي لابن فارس، المكتبة السلفية، 1910م: 231.
(٢٠) اللسان: ح ر م.
(٢١) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1980، 1: 17.
(٢٢) الخصائص؛ 239/1.
(٢٣) طبقات فحول الشعراء: 26/1.
(٢٤) كتاب سيبويه: 435/1.
(٢٥) كتاب سيبويه: 433/1-434.
(٢٦) كتاب سيبويه: 202/2.
(٢٧) كتاب سيبويه: 108/1-10.
(٢٨) كتاب سيبويه: 11/1.
(٢٩) كتاب سيبويه: 12/1-13.
(٣٠) كتاب سيبويه: 59/2.
(٣١) كتاب سيبويه: 10/1.
(٣٢) كتاب سيبويه: 161/2.
(٣٣) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق: الدكتور عبدالعال سالم المكرم، بيروت: 54
(٣٤) البحر المحيط لأبي حيان، ط السعادة 206/1.
(٣٥) كتاب سيبويه: 297/2-298.
(٣٦) الخزانة: 92/2.
(٣٧) المقتضب للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، 1963-1968م: 261/4.

(٣٨) عبث الوليد، لأبي العلاء المعري، دمشق، 1936م: 191.
(٣٩) الخزانة: 175/1.
(٤٠) وعندي أن هذا هو مراد سيبويه حين قال عن هذا البيت: هو بمنزلة في غير الشعر لأن النصب لا يكسر البيت ولا يخل به [الكتاب: 44/1]، لا كما فهمه بعضهم من أن ظاهره "أن الضرورة ليس للشاعر عنه فسحة [الخزانة: 174/1].
(٤١) الخزانة: 15/1.
(٤٢) النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري، بتحقيق: الدكتور محمد عبدالقادر أحمد، دار الشروق، 1981م: 278.
(٤٣) الكامل، للمبرد، مكتبة المعارف، بيروت: 1-34-35.
(٤٤) المدارس النحوية، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط2: 131.
(٤٥) التنبيهات لعلي بن حمزة (ضمن كتاب المنقوص والممدود للفراء)، تحقيق: عبدالعزيز الميمني، دار المعارف، 1967: 116.
(٤٦) المقتضب: 354/3.
(٤٧) الكامل: 150/1.
(٤٨) المقتضب: 282/1.
(٤٩) المقتضب: 239-240.
(٥٠) المقتضب: 97/2.
(٥١) عن الضرورة الشعرية، للسيد إبراهيم محمد، ص36.
(٥٢) الخصائص: 396/1.
(٥٣) الخصائص: 125/1.
(٥٤) الضرورة الشعرية: ص36.
(٥٥) الإنصاف في مسائل الخلاف، لابن الأنباري، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، 1945: 291.
(٥٦) الإنصاف: 446.
(٥٧) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب/ تحقيق: الدكتور محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1974.
(٥٨) اللسان: ح ر م.
(٥٩) اللسان: و أ ب.
(٦٠) الاقتضاب: 222.

(٦١) اللسان: ن ب ج.
(٦٢) الاقتضاب: 157.
(٦٣) اللسان: أ ن ف.
(٦٤) التلخيص، لبي هلال العسكري، تحقيق: مجمع اللغة العربية بدمشق، 269/1.
(٦٥) الممتع، للنهشلي القيرواني،: 140-145.
(٦٦) اللسان: ب ك ر.
(٦٧) اللسان: ع م ر.
(٦٨) الخصائص: 355/1.
(٦٩) اللسان: د و م.
(٧٠) ترتيب القاموس المحيط للفيروز أبادي، للطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، 1980: ش وف.
(٧١) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج7 ص158.
(٧٢) الضرورة الشعرية: 13.
(٧٣) الخصائص: 10/2.
(٧٤) الاقتراح للسيوطي، دار المعارف بحلب: 93.
(٧٥) عن الخزانة: 6/1.
(٧٦) الخزانة: 7/1.
(٧٧) مجلة مجمع القاهرة: ج2 ص45-50.
(٧٨) همع الهوامع، للسيوطي – بعناية النعساني، مطبعة السعادة، 1327هـ: 194/2.
(٧٩) شرح الأشموني، بولاق: 153/3.
(٨٠) الهمع: 44/1.
(٨١) اللسان: ع رب.
(٨٢) التلخيص: 267/1.
(٨٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني: 32.
(٨٤) المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، للأمير مصطفى الشهابي، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1965: 19.
(٨٥) الاقتضاب: 215.

(٨٦) في المزهر للسيوطي [351/1]، عن ابن السراج في رسالته في الاشتقاق: مما ينبغي أن يجذر كل الحذر، أن يشتق من لغة العرب لشيء من لغة المعجم، قال: فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت.

(٨٧) المصطلحات العلمية للشهابي: 125–126.

(٨٨) Dorland's 111 ustrated Medical Dictionary, 24th edn, Saunders, P. 1256.

(٨٩) الخصائص: 208./2

(٩٠) عن مقالة التضمين للأستاذ صلاح الدين الزعبلاوي [93].

(٩١) المحتسب، لابن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرين، القاهرة، 1376هـ: 58/1.

(٩٢) مغني اللبيب، لابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، بيروت: 185/2.

(٩٣) للأستاذ صلاح الدين الزعبلاوي مقالة مجودة في التضمين، نشرت في مجلة اللغة العربية بدمشق [مج 55: 1د–107].

(٩٤) المغني: 116/2.

(٩٥) حاشية الصبان، علي الأشموني 232/2.

(٩٦) دراسات في العربية وتاريخها للسيد محمد الخضر حسين.

(٩٧) اللسان: ن ور.

(٩٨) اللسان: س ي ل.

(٩٩) الخصائص: 386/1.

(١٠٠) طبقات فحول الشعراء: 14/1.

(١٠١) طبقات فحول الشعراء: 14/1.

(١٠٢) اللسان: ب خ ع.

(١٠٣) كتاب المنصوري في حفظ الصحة ومعالجة الأمراض لمن يحضره الطبيب، للرازي، مخطوط، 30.

(١٠٤) كامل الصناعة الطبية، لعلي بن العباس، القاهرة، 1294هـ: 118/1.

(١٠٥) المصطلحات العلمية للشهابي: 35–37.

(١٠٦) من مقدمة الطبعة الأولى من المعجم الطبي الموحد، بقلم الدكتور عزة مصطفى، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1973.

(١٠٧) كتاب الأزهية في علم الحروف، لعلي بن محمد الهروي، تحقيق: عبد المعني الملوحي، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1982: 288.

(١٠٨) اللامات، للزجاجي، بتحقيق: مازن المبارك، مجمع اللغة العربية بدمشق، المطبعة الهاشمية، 1969م: 161-162.

المحاضَرة الثانيـــة

تجربَـــــة كليَّـــة طـب الأزهَـــــــــر في تعريـــب العُلـــــوم الصحيـــــــــة

الاسْتَاذ الدّكتـور سالـم نجـــم
أسْتاذ الأمراض الباطنية بكلية الطب
جامعة الأزهر
وَوَكيْل مَجْلس النقابة العّامة للأطبَاء

السَّبت 15 شوال 1409هـ – 20 أيار 1989م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تاريخية:

منذ أن انتشر الإسلام وظهر نوره على بلاد الشرق الأوسط قام المسلمون الفاتحون بتشييد المساجد الجامعة في كل مدينة يفتحونها، وما لبثت أن تحولت هذه المساجد إلى جامعات تُدرَّس فيها العلوم الشرعية جنباً إلى جنب مع العلوم الكونية. فلقد أنشئ جامع البصرة سنة 14 هجرية وجامع العسكر سنة 133هـ وجامع أحمد بن طولون سنة 266 هجرية، كما أُنشئتْ جامعةُ الزيتونهِ في تونس سنة 114 هجرية وجامع القرويين بفاس بالمغرب سنة 245 هجرية وهكذا..

أزهر الفاطميين:

أما الأزهر فقد بُني مَعَ إنشاء القاهرة المَعَزيَّةِ الفاطمية عام 361هـ (يونيو 972م) ومنذ ذلك الحين لم تتوقف فيه الدراسة حتى الآن – وهو بذلك يُعَدُّ أقدم الجامعات القائمة الآن ليسَ في البلاد الإسلامية وحدها، ولكنْ في جميع أنحاء العالم، فجامعات أوروبا نشأت بعده بحوالي قرنين من الزمان، فجامعة باريس أُنْشِئَتْ في القرن الثاني عشر الميلادي – وجامعة أكسفورد في القرن الثالث عشر– وجامعة لوفان ببلجيكا وأوبسالا باسبانيا في القرن الخامس عشر.

ولم يكن دور الأزهر الثقافي مقصوراً على العلوم الدينية واللغوية كما يظن الكثيرون؛ لأن الإسلام لا يفرق بين المعارف والعلوم، بل يدعو إلى التدبر في ملكوت السموات والأرض، ويهتف في أسماع أتباعه أن الله خلق لكم ما في الأرض جميعاً، "وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس

والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار" إبراهيم، 32"، ولهذا كان علماء المسلمين في كل العصور يدرسون جميع أنواع العلوم والفنون فكان منهم الفقيه والطبيب والفلكي والمهندس والعالم الكيميائي والجغرافي والمؤرخ والرّحالة.. الخ. ونعطي هنا بعض الأمثلة: حدثنا ابن أبي أصيبعة في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" كما حدثنا القفطي في (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) أن العالم العربي الكبير الحسن بن الهيثم كان يقيم في الأزهر، استقدمه الحاكم بأمر الله من بغداد وقام بتدريس العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة والطب في الجامع الأزهر، وألَّف كتاباً في الطبّ من ثلاثين جزءاً عُرفت جميعُها بالعُمْق والدّقة والإحاطة، وتوفي ابن الهيثم عام 442هـ بالقاهرة ودفن بها.

الأزهر في الدولة الأيوبية:

يحدّثنا التاريخُ أنَّ العالِمَ العَرَبِيّ الشهيرَ موفّق الدين أبو محمد عبداللطيف بن يوسف البغدادي المولود عام 557هـ، والذي يُعدّ من أبرزَ علماء الطب والفلسفة وعلم الكلام والمنطق – صاحَبَ صلاحَ الدين الأيوبيّ في حِصاره لعكا، ثُم وَصَلَ القاهرةَ واستقر بها حتى مات صلاح الدين، ثم لازَمَ ابنَه العزيز. قال عبداللطيف عن نفسه في هذه الحقبة: "وكانت سيرتي في هذه المدة أن أُقرِئ الناسَ في الجامع الأزهر في أول النّهار إلى الساعة الرابعة، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطبَّ وغيره، وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر ويقرأ قوم آخرون – وفي الليل اشتغل مع نفسي، ولم أزل على ذلك إلى أن توفي الملك العزيز" والملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين توفي عام 595هـ، وفي هذا ما يدل على أنه كانت تلقى دروس في الأزهر من البغدادي وغيره، وأن هذه الدروس لم تكن مقصورة على الفقه واللغة بل كانت أيضاً في الطب وباقي العلوم الكونية. ويحدثنا التاريخ أيضا أن موسى بن ميمون قد وفد إلى مصر في عهد صلاح الدين وعمل طبيباً خاصاً في بلاطه، وألقى في الأزهر دروساً في الرياضة والفلك والطب.

وظل الحال كذلك في العهد المملوكي 648هـ – 922هـ، ثم في العهد العثماني من 922–1250هـ، ولكن بصورة متواضعة نظراً لكثرة المظالم وانتشار الأوبئة، وخاصة الطاعون حيث تذكر المراجع أن سكان مصر في تلك العصور انخفض عددهم إلى أقل من الربع عما كانوا عليه في العصور السالفة.

الأزهر في عهد أسرة محمد علي:

قام محمد علي بإرسال بعثات من أبناء الأزهر إلى أوروبا، فأرسل 28 طالباً في المدة من سنة 1817م إلى 1825م، كما أرسل 291 طالبا في المدة من 1826 إلى 1831م، وكان من نوابغ الخريجين، رفاعة رافع الطهطاوي المولود بسوهاج بمصر عام 1216هـ، وقد عاد من فرنسا عام 1831، وعين مترجماً بمدرسة الطبّ في (أبو زعبل التي أنشئت عام 1827، كما نذكر من أبناء الأزهر الذين رجعوا من فرنسا عام 1838، الدكتور محمد بك الشافعي الذي عين ناظراً للأمراض الباطنية في مدرسة الطب بأبي زعبل، ثم مدرساً في مدرسة الطب بالقصر العيني، ثم ناظراً لها عام 1858. وهو أول ناظر مصري لتلك المدرسة، ومن أهم مؤلفاته العلمية " **أحسن الأغراض في تشخيص ومعالجة الأمراض**"، "**والسراج الوهاج في التشخيص والعلاج**" **وترجم من الفرنسية** "**الدُّرَرُ الغَوال في معالجة الأطفال**" **لمؤلفه كلوت بك.**

ونذكر من أبناء الأزهر كذلك الدكتور السيد أحمد حسن الرشيدي الذي عاد من فرنسا عام 1838، وعُيّن مُدَرّساً في مدرسة الطّبّ في أبي زعبل ومن مؤلفاته "الروضة البهية في الأمراض الجلدية" وكذلك "ضِيا النّيِّرِيْن في أمراض العين".

كما نذكر الدكتور حسين غانم الرشيدي الذي عاد من بعثته من فرنسا عام 1845 واشتغل مصححا بمدرسة الطب ومن مؤلفاته "الدُّرُّ الثمين في الأقرابذين".

ومما لا شك فيه أن الحملة الفرنسية على مصر عام 1797 حتى 1801م، كان لها أثر إيجابي في النهضة العلمية التي حدثت في مصر في أوائل القرن التاسع عشر. يحدثنا المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي عن الهيئة العلمية التي استصحبها نابليون مع جيشه

"أنهم أفردوا لهم أماكن مختلفة في دور الأمراء المماليك في حيّ الناصرية، وأنه ذَهَبَ إليهم مراراً وأطلعوه على ما استحضروه معهم من كتب ومراجع عن أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب، ومراجع في الطب والتشريح والهندسة وَجَرّ الأثقال. وأحضر العلماء الفرنسيون معهم نظارات الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها، واتصالاتها وأنواع الساعات التي تسير بثواني الدقائق الغربية الشَّكْلِ الغالبة الثمن".

شيوخ الأزهر واهتماماتهم الطبية:

من أبرزهم الشيخ أحمدي عبدالمنعم الدّمنْهوري شيخ الأزهر عام 1182–1190هـ، وله دراسات في الهندسة والميقات والطب والتشريح والكيمياء. قال الجبرتي: "وكانت له حافظة في فنون غريبة وتآليف". "ولا ننسى من شيوخ الأزهر الشيخ أحمد بن عمر الدربي والشيخ حسن العطار ممن كان لهم إسهامات في الفنون الطبية".

مدرسة الطب المصرية

شهد عام 1821، عودة أول بعثة مصرية تلقت علومها الطبية في فرنسا وايطاليا وكان من بينهم عثمان باشا نور الدين الذي أنشأ أول مدرسة للطب في الخانكة، وهي أولى مدارس الطب في المنطقة العربية والقارة الإفريقية – ثم جاء عام 1827، وفتحت مدرسة الطب في أبي زعبل على يد الطبيب الفرنسي كلوت بك، وبعد ذلك بعشر سنوات انتقلت المدرسة عام 1837 إلى القصر العيني بالقاهرة، ولا زالت قائمة حتى اليوم – واعتمدت المدرسة في بدايتها على الترجمة من الفرنسية والألمانية والإيطالية على يد مترجمين أكفاء أمثال رفاعة الطهطاوي، ومن الأطباء كلوت بك وإبراهيم أفندي النبراوي ومحمد علي البقلي باشا وعيسى باشا حمدي، ثم جاءت مرحلة تالية قام فيها الأطباء المصريون بتأليف المراجع الطبية باللغة العربية، وأشهرهم في ذلك إبراهيم باشا حسن ناظر المدرسة الطبية المصرية ومدرس الأمراض الباطنية. ألف كتابه "جامعة الدروس السنوية في الأمراض الباطنية" المطبوع بمطبعة الحجر الطبية الدرية الكائن بحارة السقايين بمصر المحمية سنة 1311هـ. (والمرفق بهذا البحث صورة فوتوغرافية من الغلاف والفهرس والمقدمة وصورة من بحثه عن سرطان المعدة) ملحق رقم (1).

تدريس العلوم الطبية باللغة العربية:

منذ أنشئت مدرسة الطب المصرية في أبي زعبل عام 1827 ثم انتقلت إلى القصر العيني عام 1837، وهي معتمدة على أعضاء البعثات الذين أوفدوا من أبناء الأزهر إلى الدول الأوربية "فرنسا – ايطاليا – ألمانيا – انجلترا" وقام هؤلاء بترجمة العلوم الطبية بكل فروعها من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ثم التدريس باللغة العربية، ثم تطورت الأمور إلى الأفضل حيث اعتمدت الكتب المؤلفة باللغة العربية جنباً إلى جنب مع المراجع المترجمة من اللغات الأجنبية. وظل الأمر على هذا المنوال إلى ما بعد احتلال بريطانيا لمصر عام 1882، ولم تتغير لغة التدريس إلى الانجليزية إلا في أوائل القرن العشرين حين استخدم الانجليزُ الأساتذة الأطباء في كل فروع الطب من انجلترا، واستمر الحال إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى (1914–1918)، وحول هذه الفقرة يقول الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم : [كان كل أساتذة مدرسة الطب من الأجانب وعند قيام الحرب العالمية الأولى عام 1914، استُدعِيَ معظمُهم إلى الخدمة العسكرية ولم يبق منهم إلاّ كِبارُ السّنّ مثل الأستاذ فيلبس الأستاذ ورئيس قسم الأمراض الباطنية، والدكتور مادن عميد الكلية، والدكتور دوبين رئيس قسم أمراض النساء والولادة، والأستاذ وِلْسُن وغيرهم من كبار السن – وفي عام 1919 ارتقى سلم الأستاذية، أ.د. سليمان عزمي باشا في الأمراض الباطنية، ويعد أول أستاذ مصري في كلية الطب المصرية في عهدها الانجليزي، ثم تلاه بعد ذلك من الأساتذة المصريين إبراهيم فهمي المنياوي باشا، جراحة، و أ.د. نجيب محفوظ باشا، نساء وولادة، والسيد عبدالحميد سليمان باشا، ومحمد صبحي باشا في الرمد. كما تفوق في فن الجراحة علي باشا إبراهيم الذي أصبح أول عميد مصري لكلية الطب في عام 1929]، وتلاه من كبار الأساتذة المصريين أ.د. عبدالله الكاتب، أ.د. محمد طلعت، وقافلة طويلة من الأساتذة المصريين الذين نبغوا وبرعوا في الفنون الطبية وتدريس علومها، ولكنهم التزموا باللغة الانجليزية وعاء للتدريس والبحث العلمي.

القانون رقم 103 لسنة 1961

[جاء في المادة الثانية من هذا القانون النص التالي: الجامعة الأزهرية هي الهيئة الإسلامية الكبرى التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي ودراسته وتجليته ونشره، وتَحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر ورقي الحضارة وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس في الدنيا والآخرة، كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمي والفكري في الأمة العربية؛ وإظهار أثر العرب في تطور الإنسانية وتقدمها، وتعمل على رقي الآداب وتقدم العلوم والفنون وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية، وتزويد العالم الإسلامي والوطن العربي بالمختصين وأصحاب الرأي فيما يتصل بالشريعة الإسلامية، والثقافة الدينية والعربية، ولغة القرآن وتخريج علماء متفقهين في الدين يجمعون إلى الإيمان بالله، والثقة بالنفس وقوة الروح كفاية علمية وعملية ومهنية لتأكيد الصلة بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك وتأهيل عالِم الدين للمشاركة في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وعالِم الدنيا للمشاركة في كل أسباب النشاط والإنتاج والقدوة الطيبة. كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية والأجنبية، ومقرها القاهرة ويَتبع رئاسة الجمهورية].

بمقتضى هذا القانون أنشئت الكليات العملية مثل الطب البشري وطب الأسنان والعلوم والزراعة والهندسة...الخ.

بدأت الدراسة في كلية الطب عام 1963، وتخرجت الدفعة الأولى عام 1970، ولا تزال الكلية تخرج مئات الأطباء سنوياً كما تجري الدراسة العالية "دبلومات – ماجستير – دكتوراه في مختلف الفروع الطبية – وينص القانون رقم 103 أن تكون الدراسة والامتحانات وتقييم الطلاب باللغة العربية ولكن يسمح باللغة الانجليزية استثناءاً ويجب أن يجدد هذا الاستثناء سنوياً".

المناهج العلمية في كلية طب الأزهر:

هي نفس المناهج المعتمدة في باقي كليات الطب المصرية ويزاد عليها مقررات في العلوم الشرعية. وتشتمل على مادة القرآن الكريم حفظاً وتفسيراً (خمسة أجزاء) والحديث والفقه وتاريخ الخلفاء والسيرة...الخ. هذه المقررات الشرعية تلقى على الطلاب على السنوات الأربع الأولى ويبلغ عدد مجموع الساعات التي تدرس في هذه المواد 450 ساعة.

نوعية طلاب كلية الطب:

منذ أنشئت الكلية حتى عام 1986، كان الباب مفتوحاً أمام الطلاب الحاصلين على الثانوية العامة والثانوية الأزهرية ولكن منذ عام 1986، حتى اليوم اقتصر قبول الطلاب على الثانوية الأزهرية وهنا لا بد من كلمة حَقّ تقال، لقد ابتليت مصر بهذا الازدواج في النظم التعليمية والتفرقة المقيتة بين التعليم المدني والتعليم الديني وكذلك التفرقة في معاملة الخريجين من كلا النظامين. إن هذه السياسة التعليمية الخاطئة سبة في جبين مصر.

ولقد ابتدع هذا النظام محمد علي باشا الكبير في منتصف القرن التاسع عشر ثم عمقه الاحتلال البريطاني بعد ذلك ولا يزال حتى الآن.. (تعليم أزهري ديني وآخر مدني) ولكل خريج حدوده وكوادره وسلمه الوظيفي، إلى غير ذلك.

نعود إلى الحديث عن طلاب الطب من خريجي المعاهد الأزهرية: إن مستواهم اللغوي في الانجليزية متواضع وقدرتهم على الاستيعاب بالانجليزية محدودة ولذا تحتم علينا نحن أعضاء هيئة التدريس أن نشرح لهم العلوم الطبية سواء في الدروس النظرية أو السريرية "إكلينيكية" أو المعملية – ولكن لا زالت المراجع والكتب والمذكرات الطبية تكتب باللغة الانجليزية، كما أن أسئلة الامتحانات التحريرية والشفوية والسريرية تلقى على الطلاب باللغة الانجليزية ويجيب عنها الطالب بانجليزية ركيكة مطعمة بالأخطاء الهجائية واللغوية العديدة وأصبحنا كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

بوادر الأمل في الطاقات الشابة:

رغم أن أعضاء هيئة التدريس في كلية طب الأزهر استقدموا من جهات مختلفة وأحياناً متنافرة من حيث الخلفية الإسلامية مع غياب الاقتناع برسالة كلية طب الأزهر في أن مهمتها الأساسية تخريج الطبيب المسلم الداعية الذي يتحلى بالصفات التي جاء ذكرها في المادة الثانية من قانون 103 لسنة 1961، والمذكورة آنفاً – إلا أن مجموعة جيدة من أبناء المعاهد الأزهرية الذين ترقوا إلى وظائف أساتذة مساعدين في مختلف الأقسام بالكلية يتقنون اللغتين العربية والانجليزية، ويؤمنون بسمو رسالة الأزهر وقدسية الدعوة إلى الله عن طريق مهنتهم. أقول هؤلاء هم الرجاء في أن يتصدروا الصفوف في تعريب العلوم الطبية، وترجمة المراجع إلى العربية، وإجراء الأبحاث بلغة القرآن العظيم والدليل على ما أقول أن هناك أقساماً بالكلية أنجزت ما لا يقل عن مئة وعشرين رسالة ماجستير في العلوم الطبية العربية السليمة – وأخص بالذكر أقسام جراحة المسالك البولية والطب النفسي والعصبي وطب المجتمع، وهناك العديد من الأساتذة الذين ألفوا مراجع في الفروع الطبية باللغة العربية، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد عبدالعزيز وكتابه التصرف الزين في مناجزة سقم العين، في طب العيون، وحصل بهذا الكتاب على جائزة الرئيس الشاذلي بن جديد في عام 1988 من اتحاد الأطباء العرب، وهناك غيره من الأساتذة الذين ألّفوا في الجراحة مثل أ.د. محمد عبداللطيف، وفي الطب الباطني والأمراض العصبية مثل "أ. د. محمد عبداللطيف عثمان"، وأ.د. محمد الرخاوي. وفي علم التشريح، وغيرهم من أفاضل الأساتذة المؤمنين بضرورة تعريب العلوم الطبية في مصر والعالم العربي.

ندوة عن تدريس وأداء امتحانات العلوم الطبية باللغة العربية

في نهاية هذا الأسبوع وبالتحديد في يوم 25 مايو الحالي تقوم كلية طب الأزهر والنقابة العامة للأطباء بالاشتراك مع المكتب الإقليمي للصحة العالمية لشرق البحر الأبيض المتوسط، بإعداد هذه الندوة التي تضم عمداء كليات الطب في مصر والمهتمين بتعريب العلوم الطبية وتدريسها من أساتذة أقسام العلوم الأساسية والإكلينيكية، كما قمنا

بإجراء استبيان بين طلبة كليتي طب الأزهر وعين شمس حول هذا الموضوع. واستبيان آخر بين أعضاء هيئات التدريس في الكليتين وخاصة بين المعيدين والمدرسين المساعدين.

ومما يبشر بالخير والنجاح وحتمية التدريس باللغة العربية أن معظم عمداء الكليات وأساتذتها مقتنعون بالعربية تحقيقاً للنهوض بمهنة الطب، والارتقاء بمستوى الخدمات الصحية للمواطنين ناهيك عن معالجة قضايانا الصحية المحلية بفكر وأسلوب عربي يحقق المصلحة العامة للشعوب العربية.

الأبحاث والدراسات العليا التي تمت باللغة العربية

منذ عام 1975 نشطت بعض الأقسام الطبية في كلية الطب بإجراء الأبحاث الطبية وتسجيل رسائل الماجستير والدكتوراه باللغة العربية. وخلال خمسة عشر عاماً تمت مناقشة ما يزيد على المئة وعشرين رسالة ماجستير ودكتوراه في فروع الطب المختلفة خاصة في الأمراض النفسية والعصبية والمشاكل الفقهية في الممارسات الطبية مثل عملية زرع الأعضاء ومدى مواءمة الممارسات العملية مع الأحكام الشرعية. ولقد حظي الإعجاز الطبي في القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصيب وافر من تلك الرسائل، وخاصة فيما يتعلق بأطوار الجنين، الرضاعة، عسل النحل، الحبة السوداء.. الخ، كما نشطت أقسام جراحة المسالك البولية والأمراض الجلدية وأمراض النساء والتوليد والرمد بإجراء أبحاثها باللغة العربية مع ملخصات باللغة الانجليزية لجميع الرسائل.. ملحق بهذا البحث بيان بموضوعات بعض رسائل الماجستير والدكتوراه التي تمت مناقشتها في السنين الأخيرة بكلية الطب. (ملحق رقم 2).

استبيان الطلاب وهيئة التدريس:

ومن الجدير بالذكر أن نتيجة الاستبيان الذي أجري بين الطلبة أسفر عن موافقة الطلاب الدارسين بالسنوات الأولى والثانية على تلقي العلوم الطبية باللغة العربية، كما أن الاستبيان الذي أجرى بين أعضاء هيئة التدريس أسفر عن تحمس الأساتذة للقيام بالتدريس باللغة العربية، وذلك على عكس المدرسين المساعدين والمدرسين الذين لا زالوا يفضلون التدريس باللغة الانجليزية.

حتمية التدريس باللغة العربية:

إننا في مصر وخاصة في كلية طب الأزهر نؤمن إيماناً عميقاً بحتمية التدريس باللغة العربية، ليس فقط لأنها اللغة القومية ولغة القرآن الكريم ولغة الوجدان والفكر والعواطف والمشاعر ولغة المنبت والمجتمع الذي نحياه، ولكن لأنها الوعاء الصحيح لهضم المواد الطبية، وتقديم الخدمات الصحية للمواطنين في مجالات الطب السريري وطب المجتمع، والطب الوقائي، والإرشاد والتثقيف الصحي بكل فروعه. كما نعتقد في أعماقنا أننا نتحمل مسئولية تعريب وتدريس العلوم الطبية باللغة العربية في مصر، لتكون القدوة والمثل لباقي دول المنطقة.

المراجع

(١) – الأزهر – تاريخه وتطوره– الأمانة العامة للأزهر – القاهرة 1403هـ.

(٢) – إبراهيم باشا حسن – جامعة الدروس السنوية في الأمراض الباطنية مخطوط – مطبعة الحجر الطبية الذرية – حارة السقائين – مصر المحمية 1311هـ.

(٣) – إبراهيم أفندي النبراوي – الأربطة الجراحية – مترجم عن الفرنسية – فهرس المجلد السادس/ علم الطب ص97–1950م المكتبة الأزهرية – القاهرة.

(٤) – أرجوزة ابن سينا في الطب – الشيخ الرئيس الفيلسوف الطبيب أبو علي الحسين ابن علي بن سينا 425هـ – المكتبة الأزهرية – المجلد السادس/ علم الطب/ القاهرة.

(٥) – علي عبدالعظيم – الأزهر تاريخه وتطوره– مطبعة الأوقاف – القاهرة 1964م.

(٦) – علي عبدالعظيم – مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن – جزء أول 1978م وجزء ثان 1979 – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة.

(٧) – علي باشا مبارك "تنوير الإفهام في تغذّي الأجسام" مطبعة بولاق 1903م.

(٨) – كلوت بك – مؤسس الإصلاحات الطبية في عهد محمد علي باشا: أصول التشريح العام مترجم عن الفرنسية 1253هـ.

(٩) – محمد إبراهيم، الاحتفال بمرور 150 عاماً على إنشاء مدرسة الطب المصرية– مجلة الجمعية العلمية الطلابية – العدد 18 مارس 1978 – كلية الطب – القاهرة.

(١٠) – محمد بك الشافعي رئيس مدرسة الطب المصرية "أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض"، مترجمة عن الفرنسية 1259هـ، القاهرة.

(١١) – محمد دري باشا "الإسعافات الصحية في الأمراض الوبائية 1300هـ، "الأمراض الوبائية الطارئة على مصر وكيفية التحفظ منها ومعالجتها 1300هـ. القاهرة.

(١٢) – محمد بك عبدالحميد– الإسعاف الأولى– مستشفى الملك بالقاهرة 1913.

(١٣) – محمد عبدالعزيز "التصرف الزين في مناجزة سقم العين" مؤسسة الأهرام– القاهرة 1983م.

(١٤) – محمد بك صدقي – رشاد الخواص في التشريح الخاص – أشكال ورسوم – مطبعة بولاق 1304هـ – القاهرة.

(١٥) – محمد كمال السيد – الأزهر جامعا وجامعة – سلسلة البحوث الإسلامية 1406هـ – القاهرة.

ملحق رقم (1)

كتاب

جامعة الدروس السنوية في الأمراض الباطنية

تأليف

سعادة الدكتور النطاسي إبراهيم باشا حسن

ناظر المدرسة الطبية المصرية

ومدرس الأمراض الباطنية

طبع

بمطبعة الحجر الطبية الدرية الكائنة بحارة السقائين
بمصر المحمية سنة 1311 هجرية

فهرست كتاب جامعة الدروس السنوية في الأمراض الباطنية

تأليف سعادة الدكتور إبراهيم باشا حسن

ناظر المدرسة الطبية المصرية

صحيفة

1 باب في أمراض الجهاز التنفسي
1 الفصل الأول في أمراض الحفر الأنفية
1 المبحث الأول في التهاب الحفر الأنفية
1 أولاً في الزكام الحاد
4 ثانياً في الزكام المزمن والبقيّة أي الأوزين
6 المبحث الثاني في زهرى الأنف
7 المبحث الثالث في الرعاف
11 الفصل الثاني في أمراض الحنجرة
11 أولاً وظائف الحنجرة
12 ثانياً المرآة الحنجرية
14 المبحث الأول في التهاب الحنجرة
14 أولاً في الالتهاب النزلي الحنجري الحاد
16 ثانياً في التهاب الحنجرة الزمن
19 ثالثاً في الالتهاب الحنجري التشنجي أي الكروب الكاذب
20 رابعاً في التهاب الحنجري الغشائي أي الكروب الحقيقي
26 خامساً في الالتهاب الحنجري الاوزيماوي أي اوزيما المزمار
29 سادساً في الالتهاب الحنجري حول الغضاريف
31 سابعاً في الالتهاب الحنجري الدرني والسل الحنجري
36 ثامناً في الالتهاب الحنجري الزهري أي زهري الحنجرة
صفحة
40 المبحث الثاني في الأمراض العصبية للحنجرة
40 أولاً: في شلل عضلات الحنجرة
44 ثانياً: في تشنّج المزمار
48 المبحث الثالث في أورام الحنجرة

49 المبحث الرابع في سقوط الأجسام الغريبة في الحنجرة
51 الفصل الثاني في أمراض القصبة الهوائية
51 المبحث الأول في ضيق القصبة والشعب الأصلية وانسدادها
57 الفصل الرابع في أمراض الشعب
57 أولاً في الأعراض العامة للأمراض الشعبية
60 المبحث الأول في الالتهاب الشعبي
61 أولاً في الالتهاب الشعبي النزلي الحاد
65 ثانياً في الالتهاب الشعبي الشعري
68 ثالثاً في الالتهاب الشعبي المزمن
71 رابعاً في تمدد الشعب
76 خامساً في الالتهاب الشعبي الغشائي الكاذب
78 المبحث الثاني في زهري القصبة الهوائي والشعب
80 المبحث الثالث في النزلة الوافدة
80 المبحث الرابع في السعال الديكي
81 المبحث الخامس في الربو
97 الفصل الخامس في أمراض الرئتين
97 أولاً في نسيج الرئة
99 ثانياً في الأعراض العامة لأمراض الرئتين
101 ثالثاً في طريقة البحث عن الصدر
108 المبحث الأول في الاحتقان الرئوي
صفحة
109 المبحث الثاني في أوذيما الرئة
111 المبحث الثالث في النزيف الشعبي والرئوي والنفث الدموي
115 المبحث الرابع في الالتهاب الرئوي الليفي الحاد
120 المبحث الخامس في الالتهاب الرئوي النزلي أي الفصيصي

134 المبحث السادس في الالتهاب الرئوي المزمن الخلائي واسكليروز الرئة
138 المبحث السابع في خراج الرئة
140 المبحث الثامن في الغنغرينا الرئوية
144 المبحث التاسع في الأنفيزيما الرئوية
148 المبحث العاشر في ضغط الرئة وهبوطها
151 المبحث الحادي عشر في الدرن الرئوي
152 أولاً في السل الرئوي
177 ثانياً في الدرن الرئوي الدخني
181 المبحث الثاني عشر في الآفات الزهرية للرئة والسل الزهري
185 المبحث الثالث عشر في السرطان الرئوي
187 المبحث الرابع عشر في الأكياس الديدانية للرئة
189 الفصل السادس في أمراض البليورا
189 المبحث الأول في الالتهاب البليوراوي
193 أولاً التهاب البليوراوي الجاف
195 ثانياً الانسكاب البليوراوي المصلى
196 ثالثاً الانسكاب البليوراوي الصديدي
197 رابعاً الانسكاب البليوراوي الدموي
198 خامساً الانسكاب البليوراوي اللبني
205 المبحث الثاني في انسكاب الهوا في البليورا
صفحة
209 المبحث الثالث في انسكاب البليورا الاوزيماوي
211 المبحث الرابع في سرطان البليور
211 باب في أمراض الجهاز الدوري

211 الفصل الأول في أمراض القلب
212 المبحث الأول في التهاب التامور
220 المبحث الثاني في التهاب الغشاء الباطن للقلب
220 أولاً في الالتهاب الحاد البسيط للغشاء الباطن للقلب.
222 ثانياً في الالتهاب الحاد العفن للغشاء الباطن للقلب
227 المبحث الثالث في آفات صمامات القلب على العموم
242 المبحث الرابع في آفات صمامات القلب على الخصوص
242 أولاً في آفات الصمام المترال
247 ثانياً في آفات الصمام الاورطي
250 ثالثاً في آفات الصمام الأذيني البطيني الأيمن
251 رابعاً في آفات الصمام الشرياني الرئوي
252 المبحث الخامس في الداء الأزرق أو السيانوزي
254 المبحث السادس في أمراض الطبقة العضلية للقلب
254 المسألة الأولى في التهاب الطبقة العضلية للقلب
254 أولاً في الالتهاب الحاد والاستحالة الشحمية للقلب
256 ثانياً في الالتهاب المزمن واسكليروز القلب
258 المسألة الثانية في ضخامة القلب وتمدده
266 المبحث السابع في الأمراض العصبية للقلب
266 أولاً في الإغماء
269 ثانياً في الخفقان
272 ثالثاً في الذبحة الصدرية
278 رابعاً في الفوتر الجحوظي
284 الفصل الثاني في أمراض الأورطي
284 المبحث الأول في التهاب الأورطي

287 المبحث الثاني في انوريزما الأورطي
287 أولاً في انوريزما الأورطي الصدرية
289 في انوريزما الأورطي الصاعدة
292 في انوريزما قوس الأورطي
295 في انوريزما الأورطي النازلة
298 ثانياً في انوريزما الأورطي البطنية
300 الفصل الثالث في أمراض الأوعية الدموية الدائرية
300 المبحث الأول في الاوذيما المؤلمة البيضا
302 المبحث الثاني في التهاب الشرايين
303 أولاً في الالتهاب الشرياني الجرحى والعفن
305 ثانياً في الالتهاب الشرياني الايترومي والاسكليروزي
307 المبحث الثالث في السدد الدموية
310 باب في أورام الحجاب المنصف
317 باب في أمراض الجهاز الهضمي
317 الفصل الأول في أمراض الفم
317 المبحث الأول في التهاب الغشاء المخاطي للفم
317 أولاً في الالتهاب الفمي النزلي
319 ثانياً في الالتهاب القمي الهربسي أي الأفت
321 ثالثاً في الالتهاب الفمي القشطي أي القلاع
323 رابعاً في الالتهاب الفمي التقرحي اللبي
325 خامساً في الالتهاب الفمي الغنغريني
327 الفصل الثاني في أمراض الغدد اللعابية
327 أولاً في التلعب أي إفراط اللعاب
329 ثانياً في نقص اللعاب

329 ثالثاً في الالتهاب النكفي
329 الالتهاب النكفي البسيط
330 الالتهاب النكفي المعدي أي الحمى النكفية
333 الفصل الثالث في أمراض الحلق
333 أولاً في الالتهاب اللوزي الحاد أي الذبحة اللوزية الحادة
337 ثانياً في الالتهاب اللوزي المزمن وضخامة اللوزتين
339 ثالثاً في الالتهاب البلعومي الحاد أي الذبحة البلعومية الحادة
342 رابعاً في الالتهاب البلعومي المزمن
344 خامساً في غنغرينا الحلق
344 سادساً في دفتيريا الحلق
352 سابعاً في زهرى الفم والحلق
357 ثامناً في درن الفم والحلق
359 تاسعاً في الآفات الخنازيرية للفم والحلق
360 الفصل الرابع في أمراض المري
360 أولاً في التهاب المري
362 في ضيق المري
362 في تمدد المري
363 ثانياً في سرطان المري
366 ثالثاً في تشنج المري
367 الفصل الخامس في أمراض المعدة
367 المبحث الأول في الأعراض العامة لآفات المعدة
367 أولاً اضطراب الشهية
368 ثانياً التحضي
369 ثالثاً القيئ

371 رابعاً السعال المعدي
371 خامساً الفواق
372 سادساً الاضطراب العصبي للمعدة
372 المبحث الثاني في التهاب المعدة
372 أولاً في التهاب المعدة الحاد
378 ثانياً في الالتهاب المعدي المزمن
379 المبحث الثالث في الديسيسا أي سوء الهضم المزمن
388 المبحث الرابع في قروح المعدة والقرحة الوحيدة
398 المبحث الخامس في الآلام العصبية للمعدة
400 المبحث السادس في النزيف المعدي والقيئ الدموي
419 الفصل السادس في أمراض الأمعا
419 أولاً في المغص
422 ثانياً في الإمساك
426 ثالثاً في الإسهال
428 المبحث الأول في الالتهاب المعوي
428 أولاً في الالتهاب المعوي الحاد
435 ثانياً في الالتهاب المعوي المزمن
439 ثالثاً في التهاب الأعور والالتهاب حوله

صفحة

443 رابعاً في القرحة الوحيدة للاثنى عشري
445 خامساً في الدوسنتاريا
446 المبحث الثاني في الاحتباس المعوي

456 أولاً في تداخل الأمعاء في بعضها
464 ثانياً في ضيق الأمعاء وانسدادها
475 المبحث الثالث في البواسير
481 المبحث الرابع في النزيف المعوي
485 المبحث الخامس في سرطان الأمعا
490 المبحث السادس في الدرن المعوي
492 المبحث السابع في الديدان المعوية
493 اولاً في الديدان الشريطية للأمعاء
393 الدودة الوحيدة أي ذات الكلاليب
495 الدودة المحفورة الوسط أي عديمة الكلاليب
496 الدودة المخفورة الرأس أي البوتريوسفال
504 ثانياً في الديدان الاسطوانية للأمعاء
504 الديدان الخراطينية
507 الديدان الخيطية أي الشعرية الذنب أي الاوكسيير
509 الديدان الشعرية الرأس أي التريكوسفال
510 الديدان المعوجة الفم أي الانكلوستوما
515 الفصل الرابع في أمراض البريتون
515 المبحث الأول في الالتهاب البريتوني الحاد
525 المبحث الثاني في الالتهاب البريتوني المزمن
527 المبحث الثالث في الدرن البريتوني أو الالتهاب البريتوني الدرني
531 المبحث الرابع في سرطان البريتون أو الالتهاب البريتوني السرطاني
532 المبحث الخامس في الاستسقاء الزقي
540 الفصل الثامن في أمراض الكبد
541 أولاً تشريح الكبد

542 ثانياً وظائف الكبد
543 المبحث الأول في اليرقان
552 أولاً اليرقان البسيط الاحتباسي
553 ثانياً اليرقان البسيط النزلي
554 ثالثاً اليرقان الخبيث
557 المبحث الثاني في الحصوات الصفراوية
560 أولاً في المغص الكبدي
567 المبحث الثالث في احتقان الكبد
571 المبحث الرابع في التهاب الكبد
571 أولاً في التهاب الكبد الحاد التّقيّحي
579 ثانياً في التهاب الكبد الخلائي أي سيروز الكبد
580 في السيروز الضموري
589 في السيروز الضخامي الصفراوي
591 في السيروز الضخامي غير الصفراوي
593 ثالثاً في التهاب الكبد الأصفر الضموري
598 المبحث الخامس في الاستحالة الشحمية للكبد
601 المبحث السادس في الاستحالة النشوية للكبد
603 المبحث السابع في سرطان الكبد والمسالك الصفراوية
610 المبحث الثامن في زهري الكبد
611 المبحث التاسع في أكياس الكبد الديدانية
621 الفصل التاسع في أمراض الوريد الباب
622 الفصل العاشر في أمراض البنكرياس
653 الفصل الحادي عشر في أمراض الطحال

تمت الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحكيم العليم* القادر المقتدر البر الرحيم* المحيط بالأشياء كلها* البصير بكيفياتها وكنهها* لا يعزبُ عن علمه شيء قل أو جَلّ* ولا يخرج عن حكمه ما عرض أو حصل* أحمده تعالى دبّر الأجسام والأعراض* وخصّ من شاء بالصحة وابتلى من أراد بالأمراض* وأشكره على مزيد عنايته حيث ألهمهم دواء كل داء* واختار منهم من يقوم بذلك وهم الأطباء* فسبحانه خص من شاء بما شاء* ولا يقع في ملكه إلا ما يشاء* والسلام على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها* وعافية الأبدان وشفائها* صلى الله عليه وعلى آله* والتابعين له والناصحين على منواله* صلاة وسلاماً دائمين متلازمين ما برئ من مرض عليل* وبَرَدَ من فؤاد غليل*.

(أما بعد)

فيقول المتوكل على ربه القدير* المعترف بالتقصير* من له بربه ظن حسن* إبراهيم باشا حسن* ناظر المدرسة الطبية المصرية* ومدرس الأمراض الباطنية* قد قضت العادة والقوانين المرعية* باجتماع جمعية من الأساتذة بالمدرسة في ابتداء كل سنة مكتبية* مركبة من أفاضل المدرسين* والأعضاء الكرام الممتحنين* لتقرير ما يلزم تدريسه في تلك السنة على كل أستاذ* ليكون له أنموذجاً وخير ملاذ* فاتفقت الآراء على انتخاب كتب مهمة حديثة في الأمراض الباطنية* أقرت عليها تلك الجمعية* وقرروا ما استحسنوه منها عليّ* فبادرت إلى أهم الكتب لدي* وجعلتها دستوراً* واستخرجت منها ما كان محققاً مشهوراً* مما جرب نفعه* ووجب على أهل الفن وضعه* والتزمت الإيجاز مع حسن التأليف* واجتنبت الأطناب والزيف* وتركت ما لم تظهر اهميته* ولم تتحقق مريَّتُه* واعرضت عن الأخذ بالافكار والآراء* والمجادلات والإطراء* واثبت ما صح منها مع الإيضاح الكافي* والبيان الشافي* ونبذت تكرار القواعد الأساسية* وإعادة

المسائل العملية والعلمية* حسب الأهمية في الاكلينك* وأوضحت أسباب الأمراض وآفاتها ومضاعفاتها وعلاماتها والأعراض* لما في ذلك من الأهمية الكبرى في التشخيص* وأوضحت الإنذار والمعالجة بوجه التلخيص* ولم أقصر في التفصيلات الضرورية* مما فيه نوع أهمية* من دقائق أشكال الأمراض وتنوعاتها* وما يوافقها من المعالجة الواقية والشافية لعلاتها* والمعالجة الدوائية والإقليمية* والحمامات المعدنية واستعمال الكهربائية* واعتمدت في ذلك على الله* الذي من توكل عليه كفاه*. وجمعت ما اخترته جمع تصحيح* وجعلته في غاية التوضيح* وسميته جامعة الدروس السنوية* في الأمراض الباطنية* لأنه عبارة عن مجموع الدروس التي ألقيتها على التلامذة في تلك السنة* مما أجمع عليه رأي جميع المعلمين واستحسنه* وقد اشتمل على أمراض الجهاز التنفسي والدوري والهضمي* وأطلقت في ميدانها جواد فكري وفهمي* فجاء بحمد الله تعالى غنياً عن التحسين* جامعاً مانعاً حاوياً كل معنى ثمين* فقلت مستعيناً بالله العلي الكبير* أنه على ما يشاء قدير*.

باب في أمراض الجهاز التنفسي

(الفصل الأول في أمراض الحفر الأنفية)

المبحث الأول في التهاب الحفر الأنفية

التهاب الغشاء المخاطي للحفر الأنفية إما أن يكون حاداً ويقال له الزكام الحاد وإما أن يكون مزمناً بسيطاً ويقال له الزكام المزمن أو منتناً ويعبر عنه بالأوزين أو البقية.

أولاً: في الزكام الحاد

الزكام الحاد هو التهاب نزلي حاد يصيب الغشاء المخاطي للحفر الأنفية وهو إما أن يكون ذاتياً أو عرضياً.

(الأسباب): السبب المعتاد للزكام الذاتي هو تأثير البرد الرطب لا سيّما إذا كان في الشخص استعداد له فيكفي في الإصابة به بسرعة برودة الأقدام مثلاً وأكثر الناس استعداداً له ذوو البنية الدياتيزية والنقرصية والمصابون بالربو ويكثر الزكام في الشتاء وفي ابتداء فصل الربيع وقد ينتشر حينئذ بصفة وبائية.

والمشهود بين العامة أن الزكام مُعدٍ فيسري بواسطة منديل المزكوم أو معانقته. وأقرّه بعض المؤلفين (فرنكل) وأنكره بعضهم بالتجربة (فريدريش) واستكشف بعضهم في الغشاء المخاطي الأنفي نوع فطر ميكروكوكي ونسب إليه الزكام ولم يثبت إلى الآن أنه مخصوص به.

وقد يظهر الزكام من تهيج موضعي عقب استنشاق بعض الروائح أو الأتربة أو الأبخرة المهيجة. والزكام الذي يصحب حمى الدريس ينسب إلى استنشاق المنى النباتي.

والزكام العرضي هو ما يشاهد في سير بعض الأمراض كالحصبة والتيفوس والنزلة الوافدة ونحوها. وكذلك الزكام النوعي الدفتيري والزهري والبلينوداجي الخنازيري والسقاوي الخ.. والزكام هو ما يحدث في التسمم باليدوريات.

وينتظم التبرز ويرتفع قاع المعدة إلى أعلى.

وأما المعالجة العامة فتتعرض للأنيميا والاستعداد العصبي وأهمها حينئذ الاستحمام بالماء البارد والسكنى على شواطئ البحار ويمكن للمريض المداومة على غسل المعدة وحده مدة إقامته في تبديل الهواء.

وأما المعالجة الجراحية التي يقصد بها توسيع فتحة البواب أو استئصاله فسنذكرها في سرطان المعدة.

(المبحث الثامن في سرطان المعدة)

سرطان المعدة مهم وليست أهميته بالنسبة لخطره فقط بل بالنظر لكثرة حصوله أيضاً لأنه يأتي عند الرّجلُ غالباً قبل سرطان المستقيم وعند المرأة قبل سرطان الثدي والرحم.

(الأسباب): سرطان المعدة يكون في العادة أصلياً بخلاف سرطان الكبد ويصيب الرجال أكثر من النساء وبعد سن الأربعين أكثر من سن الشبوبية وللوراثة دخل كبير في الاستعداد له والحُزْنُ المستطيل مُهَيِّئٌ له وقد يعقب الأسباب الجرحية كالصدمات على القسم الشراسيفي.

(التشريح المرضي) أنواع السرطان النخاعي والاسكيري والصمغي والبشري ذو الخلايا الاسطوانية يمكن مشاهدتها في المعدة. ويكون مجلسها بالأكثر في البواب ثم في القوس الصغير والفؤاد ثم في الوجه الخلفي والمقدم والقوس العظيم ويكتسب السرطان في المعدة هيئة الأورام أو القروح أو يكون مرتشحاً في جدر المعدة في امتداد كبير أو صغير وقد تكون القروح والارتشاحات السرطانية عريضة غير منتظمة أو حلقية مستطيلة حول البواب والفؤاد أو مستطيلة بطول القوس الصغير.

ويكتب السرطان في البواب الشكل الحلقي غالباً ويكون في العادة محدوداً تجاه الاثني عشري وممتداً جهة تجويف المعدة ويضيع في جدارها بالتدريج ويتسبب عنه ضيق فتحة البواب جداً بحيث لا تسع طرف الإصبع إلا بعسر وقد لا يمكن إدخال القثاطير المعتادة فيها ويكون الغشاء المخاطي في حذائها محمرّاً سميكاً أو عديم الانتظام عقدياً أو يكون سطحه خملياً ويكون في الغالب متقرحاً بقرحة كثيرة الامتداد أو حلقية.

وبشق جدر المعدة في حذاء البواب يوجد الغشاء المخاطي سميكاً جداً حتى أنه قد يكون ثلثي الجدر وحده. والطبقة العضلية تحته ضخمة أيضاً بدرجة مختلفة وألبافها باهتة ومتبددة ومرتشحة بالسرطان وبالنسيج الخلوي الحديث التكوين، ويتكاثف النسيج الخلوي تحت الطبقة العضلية أيضاً، ويرتشح هو والغشاء المصلى بالسرطان وقد يكون البريتون سليماً أو محمراً وفيه آفات الالتهاب الالتصاقي أو يكون متقرحاً أيضاً.

وأما في قوس المعدة وسطحها فإن السرطان يمتد عادة في العرض على هيئة بقعة أو شريط أو ورم بارز أو قليل التحدب وتضيع حافته بالتدريج في جدار المعدة أو يكون متقرحاً وتختلف أوصاف القرحة باختلاف نوع السرطان وقد يتسبب عنها تآكل جدر المعدة أو ثقبها ولكن حصول تقرح الأوعية هنا أقل منه في القرحة الوحيدة للمعدة ومتى كان مجلس السرطان فتحة الفؤاد فإنه يمتد غالباً إلى المريء ويصيب طرفه المجاور.

ومتى يصيب البريتون يحصل التهاب التصاقي ويمتد السرطان من المعدة إلى الأعضاء المجاورة بواسطة الأوعية الدموية واللنفاوية فيصيب الكبد والثرب والبنكرياس والرئة والكلا والطحال والقص والفقرات أو تحصل نواسير بين المعدة والجزء الأول من الاثني عشري أو بينها وبين القولون المستعرض وقد يحصل ناسور معدي جلدي يعقب تقرح جدر البطن في القسم الشراسيفي أو بجوار السرة وقد يكون الناسور أعور معدياً أو جلدياً ويصحب السرطان المعدي دائماً انتفاخ العقد اللنفاوية المساريقية وارتشاحها السرطاني.

ثم إن السرطان يبتدئ عادة بالمنسوج الخلوي تحت الغشاء المخاطي والطبقة الغددية المجاورة له فتحصل فيها ضخامة وتستطيل الغدد وتنمو في المنسوج الخلوي وتتباعد عن بعضها وتفسد بالارتشاح السرطاني الذي يمتد بعد ذلك إلى الطبقة العضلية فتحصل فيها ضخامة وتبهت ألبافها وتنفصل عن بعضها عقب تكاثر المنسوج الخلوي والخلايا السرطانية وتنتهي بالاضمحلال. وأورام المعدة السرطانية إما أن تكون وحيدة أو

متعددة ويختلف حجمها في زيادة الاستروما الليفية أو زيادة الخلايا الرخوة في نسيج الورم باختلاف قوامه فيكون أكبر حجماً وأطرى قواماً وأكثر وعائية ويكون العصير اللبني فيه متزايداً في النوع النخاعي ويكون أكثر صلابة في النوع الاسيكري ويكون الغشاء المخاطي فوق الورم إما متكاثفاً تخيناً أو متقرحاً وتختلف أوصاف القرحة أيضاً باختلاف نوع السرطان فتكون في النوع الاسكيري بطيئة السير وأزرارها اللحمية ووعائيتها قليلة وتكون في النوع البشري سطحية وأما في النوع النخاعي فتكون عريضة غير منتظمة وسطحها مغطّى بأزرار محمرة رخوة تدمى بسهولة وحافتها منقلبة وأزرارها اللحمية نامية ومحتوية على مقدار زائد من العصير اللبني السرطاني وقد تنفصل الأزرار اللحمية وتسقط وتتكشف الطبقة العضلية تحتها منتهكة أو يحصل إنثقاب جدر المعدة كلها وتتآكل الأوعية في طريقها وتعقب ذلك عوارض التهابية وأنزفة خطرة.

وقد يشاهد النوع الخملي للسرطان في المعدة فيرى سطحها مغطى بخمل وردي وكل خملة متكونة من وعاء مركزي محاط بالخلايا السرطانية وهذا الخمل يدمى ويتجدد بسهولة ولكن هذا النوع أكثر حصولاً في المثانة وأما النوع الصمغي فإنه لا يتقرح إلا نادراً وإنما يرتشح في جدر المعدة ويصل إلى البريتون ويمتد على سطح كبير أو يكتسب سماكة زائدة بدون أن تتكون منه أورام.

ثم إن وجود السرطان في المعدة تتسبب عنه آفات تابعية مختلفة فإذا كان مجلسه البواب فإنه يتسبب عن ضيقه تمدد المعدة الذي يختلف باختلاف درجة الضيق وسهولة مرور المواد من فتحته أو صعوبتها.

وأما إذا كان مجلس السرطان في فتحة الفؤاد فإنه يتسبب عنه ضمور المعدة وتمدد المريء أعلى النقطة المصابة وإذا كان مجلس السرطان القوس الصغير بين فتحتي الفؤاد والبواب فإنه بانكماشه يوجب تقارب الفتحتين من بعضهما وإذا امتد من القوس الصغير إلى سطحي المعدة المقدم والخلفي فإنه يوجب تقاربهما من بعضهما إلى درجة التلامس تقريباً فلا يكاد يشاهد التجويف المعدي بينهما.

(الأعراض): قد يسبق ظهور السرطان بمسافة بعض أشهر أو سنين مع كون الشخص متمتعاً بظواهر الصحة التامة حصول أنزفة خفيفة معدية تسببها (تروسو) بالأنزفة الرئوية السابقة للدرن الرئوي، ويمكن نسبتها لاحتقان وهشاشة الأوعية الدقيقة.

وأما الأعراض الابتدائية للسرطان فلا نظام لها وتشبه أعراض سوء الهضم البسيط غالباً فتضعف الشهية ويحس بتعب خفيف في القسم الشراسيفي بعد الأكل ويعقب الأكل تجش حمضي ثم يزداد التألم وتفقد الشهية وينتحل المريض وتضعف قواه ويبهت لونه فإذا شوهدت لهذه الأعراض عند شخص زاد سنه عن الأربعين وكان عنده استعداد ورائي ربما يشتبه في نوع المرض وقد تستمر هذه الحالة عدة أسابيع أو أشهر مع تزايد الألم واكتسابه مدة ليس لها علاقة بتعاطي الطعام ولا تصل إلى حدة ألم القرحة الوحيدة ولا تكون ثابتة بقرب النتو الحنجري ولا في الفقرة الأولى القطنية بل يكون الألم في الغالب أصمياً أو نخسياً محدوداً على قسم المعدة أو متشععاً نحو الظهر والمرفقين ثم يتضاعف بالقيء.

وأما القيء فإنه لا يحصل عادة إلا إذا تقدم المرض أو لا يشاهد بالكلية وقد يظهر القيء مبادراً ويستمر مع تقدم السرطان ويتكون ابتداء من مواد مخاطية مختلطة بأغذية غير تامة الهضم أو يكون مائياً ولا يكون صفراوياً إلا في أحوال استثنائية، ويحصل صباحاً أو في أثناء النهار، ويعقب القيء تعاطي الأطعمة بسرعة إذا كان مجلس السرطان في الفؤاد أو قريباً منه، ويتأخر عن الطعام ببعض ساعات إذا كان مجلس السرطان في البواب. ومتى تقدم المرض يصير القيء مدمماً ولكن حصول النزيف المعدي الغزير نادر في السرطان بالنسبة لكثرته في القرحة الوحيدة للمعدة وفي الغالب يكون الدم مسوداً كتنوة القهوة أو النيلج المعلق في الماء بسبب تأثير العصير المعدي عليه وقد يكون مقداره واهياً فلا يعلم وجوده في مواد القيء إلا بالبحث المدقق عنها وبعض الدم ينفذ في الأمعاء ويخرج مع المواد الثقيلة على هيئة ميلينا، وقد تشاهد الميلينا وحدها عند بعض المرضى بدون قيء مدمم، وينشأ النزيف المعدي من إصابة الأوعية بالقرحة السرطانية ولذلك يتأخر ظهوره في السرطان ولا تصاب الأوعية الغليظة إلا نادراً.

ويصحب السرطان المعدي عادة إمساك مستمر ويزداد سوء الهضم وتمدد المعدة كلما زاد ضيق فتحة البواب ما لم يتكون ناسور بين المعدة والاثني عشري يوجب تصريف المواد الغذائية بسهولة بعد هضمها وأما إذا تكون الناسور بين المعدة والقولون المستعرض فيعقبه نزول المواد الغذائية في الأمعاء الغلاظ وحصول إسهال لياانتيري ونفوذ الغازات وبعض المواد البرازية في المعدة فيزيد اضطراب الهضم ويكتسب النفس رائحة الغائط ويمكن الاستدلال على وجوده هذه المضاعفة بإعطاء المريض أغذية ملونة

بالعصفر أو الدودة مثلاً وينتظر خروجها بالتَّغَوُّط بعد مضي بعض ساعات متهضمة بدرجة غير تامة وواضحة التلون.

وقد يكون السرطان كامناً بحيث لا يشاهد سوء الهضم ولا القيء عند المريض ويحصل ذلك خصوصاً إذا كان مجلس السرطان في فتحة الفؤاد أو في الطرف السفلي من المريء. وفي النادر متى كان السرطان في القوس العظيم (واتسون). وقد لا يشاهد اضطراب خفيف في الهضم وعلى كل الأحوال تحصل الأعراض العامة كالنحول والضعف وبهاتة اللون ويستدل منها على وجود آفة حديثة قد يمكن الوقوف عليها بدوام الاعتناء في البحث عن المريض.

وأما العلامات الطبيعية لسرطان المعدة أي العلامات التي يستشعر بها الطبيب بالنظر والجس والقرع فيلزم البحث عنها دائماً متى حصلت الشبهة في المرض فيلقي المريض على ظهره بالراحة بحيث يكون كتفاه منخفضين قليلاً وتثنى ركبتاه ويؤمر بالتنفس بفمه ببطء ويتأمل الطبيب حينئذ في قسم المعدة ربما يجد فيه بروزاً أو تحدباً خفيفاً ثم يفعل الجس باليد، وقد يحس بالورم بسرعة وفي الغالب تلزم زيادة التأني خصوصاً متى انقبضت العضلة المستقيمة للبطن وتوترت فإنه لا يحس بشيء تحتها فيلزم تحويل فكر المريض بالتكلم معه كي تسترخي عضلاته وتوضع راحة اليد على البطن بلطف بشرط أن لا تكون اليد باردة، وتستمر اليد ساكنة برهة فوق جدر البطن تابعة لحركات الارتفاع والانخفاض التنفسية ثم يبتدئ بضغط خفيف يزداد تدريجاً حتى يتم الجس حسب اللزوم. وإنما يحترس الطبيب في ملازمة جدر البطن باليد مدة الجس كلها ولا يضغط عليها بالأنامل فجأة لأجل عدم تنبهها وحيث إن المعدة المصابة بالسرطان تتألم عادة بالضغط عليها فيجب تخفيف الضغط مدة الجس بقدر الإمكان.

وينشأ من سرطان المعدة حصول ورم في القسم الشراسيفي يختلف حجمه ووضعه باختلاف مجلسه ويكون في العادة متحركاً. ويسهل الوصول إليه متى كان مجلسه القوس العظيم أو قعر المعدة أو فتحة البواب بخلاف أورام القوس الصغير والفؤاد فإنها تكون في الغالب ثابتة ومختفية.

أما سرطان البواب فيمكن تحديد أورامه عادة من كل الجهات ما عدا جهة اليسار التي تضيع بالتدريج في المعدة ويختلف حجمها من قدر الجوزة إلى البرتقالة ويحس به

أعلى السرة وعلى يمينها بقليل لأن البواب ينزل عن وضعه الطبيعي خلف الفص اليساري للكبد بسبب نقل الورم السرطاني عليه وضغطه إلى أسفل وبسبب ضغط المنطقة عليه عند النساء (برينتون)، ولكن متى التصق الورم السرطاني بالأعضاء المجاورة فإن البواب يثبت في محله بعدها، وقد يصل البواب أسفل السرة أو في الحفرة الحرقفية اليمنى أو في الحوض ويثبت هناك بالتصاقه مع الأمعاء أو الرحم والمثانة (فوكس).

والورم السرطاني للمعدة على العموم وسرطان القوس العظيم على الخصوص قد يتغير وضعهما على حسب امتلاء المعدة وفراغها ويظهر أنه ينخفض مدة الشهيق القوي ولكن قد يتهيأ حصول الانخفاض هنا عقب انجذاب جدر البطن إلى أعلى مع الأضلاع.

وقد يحتقن الورم السرطاني شيئاً فشيئاً بعد الإحساس به وينسب ذلك إما لتمدد المعدة أمامه أو لتغطيته بالقولون المستعرض. وقد يتأثر الورم السرطاني من نبضات الأورطي تحته بحيث إنه ربما يلتبس بانوريزما الأورطي.

وبالقرح على الورم السرطاني توجد أصمية واضحة إذا كان حجمه كبيراً وأما إذا كان صغيراً فإن أَصَمِّيَّتَهُ تتغطى بالرنانية المجاورة.

وأما الأعراض العامة للسرطان المعدي فإنها تتصف بفقد الشهية وكراهة الأطعمة لا سيّما اللحوم وفقد القوى وتقدم النحول وحصول الإسهال يعد الإمساك الابتدائي وبهاتة الجلد واكتسابه لون التبن وجفافه وتثنيته، وحفظ القوى العقلية، وظهور الكاشيكسا السرطانية وارتشاحاتها الاوزيماوية في البطن والأطراف والبول الزلالي والاوزيما البيضا المؤلمة الوريدية الأصل ونحو ذلك. ولا تشاهد الحمى مع هذه الأعراض إلا نادراً. وفي كثير من الأحوال يحتوي البول على الانديكان أي مادة نيلية يعرف وجودها بالتّلون باللون الأزرق المحمر أو الأزرق الغامق متى وضع في كوبه مقادير متساوية من البول وحمض الكورايدريك وأضيف إلى ذلك من نقطة إلى ثلاثة من محلول كلورور الكالسيوم المركز.

ويتضاعف سرطان المعدة غالباً بإصابة الكبد فتضم أعراض سرطانه إلى الأعراض السابقة أو يضغط سرطان المعدة على الوريد الباب أو يمتد إلى البريتون وهذا ما يساعد على حصول الاستسقاء الزقي وزيادة سائلة المصلي.

(المدة والانتهاء) تختلف مدة سرطان المعدة فإذا أصيب البواب أو الفؤاد فتكون في العادة من بعض أشهر إلى ستة ونصف. وإما إذا كان البواب والفؤاد سليمين بحيث يمكن مرور الأطعمة فان مدة السرطان ربّما استطالت إلى بعض سنين وتقصر المدة إذا كان سن المريض تحت الثلاثين.

ويحصل التواتر إما من تقدم الكاشيكسيا والفقد الدموي أو من امتداد السرطان في الأعضاء الأخرى كالكبد والبريتون والبنكرياس. وإما ثقب المعدة والالتهاب البريتوني الحاد والنزيف الغزير فإنها عوارض أقل حصولاً في سرطان المعدة منها في قرحتها الوحيدة.

(التشخيص) تشخيص سرطان المعدة صعب في كثير من الأحوال وقد لا يتوصل الطبيب إلا إلى الحكم بالشبهة فيه فقط، وقد تكون أعراضه كامنة أو منحصرة في أعراض سوء الهضم البسيط بدون قيئ ولا نزيف مُعْد ولا ورم. وعما قليل تظهر أعراض الكاشيكسيا فإذا كان سن المريض قد جاوز الأربعين أو الخمسين يمكن الحكم بالشبهة إنه مصاب بالسرطان وغلغموني الترب أو الغلغموني حول السرة إذا اشتبه بسرطان المعدة فان تكوّن الخرّاج ووجود الحمى وعدم ظهور أعراض الكاشيكسيا يرفع الالتباس.

ويتميز سرطان المعدة الواصلة إليه نبضات الاورطي عن الانوريزما الشريانية الاورطي البطنية.

وقد يكون سرطان المعدة كامناً ولكنه يمتد إلى الكبد بسرعة وتظهر أعراضه فيه بشدة بحيث تغطي على أعراض سرطان المعدة الأصلي ويموت المريض قبل تحقيق التشخيص.

وقد يكون سوء الهضم مصحوباً بأعراض الكاشيكسيا السرطانية، لكن مجلس السرطان في الترب أو البنكرياس أو في العقد المساريقية، إلا أنّ القيء المدمم وتمدد المعدة يختصان بسرطانها دون الآفات المذكورة.

والاوزيما البيضا وإن كانت كثيرة الحصول في سرطان المعدة إلا أنها ليست خاصة به لأنها تشاهد في الكاشيكسيا السرطانية على العموم لكنها متى حصلت عند شخص مشتبه فيه بإصابة المعدة فإنها تساعد على تعيين التشخيص وكذلك نقص البولين في البول (بوملير)، وزيادة خواص البول السمية تنسب للسرطان على العموم وتعين تشخيص مجلسه في المعدة إذا كانت الأعراض تعلن بالشبهة في إصابتها ومع ذلك فعلامات البول المذكورة ليست مثبوتة.

وتمييز سوء الهضم البسيط عن سرطان المعدة وان كان سهلاً في بعض الأحوال باعتبار القيء والورم والكاشيكسيا إلا أنه قد يتعذر أحياناً متى كان سوء الهضم متقدماً واوجب نهوكة الشخص المفرطة.

وفي أحوال أخرى تدل الأعراض على إصابة المعدة بآفة خبيثة، وإنما يتحير في التشخيص بين السرطان والقرحة الوحيدة وتتميز الآفتان عن بعضهما أولاً بسن المريض فان كان شاباً فالقرحة وإن كان شيخاً فالسرطان أقرب للعقل. ثم إن الآلام لها أوصاف مخصوصة في القرحة وكذا النزيف الغزير المبادر ربما ينسب إلى القرحة وأما نزيف السرطان فيحصل متأخراً ويكون في العادة عفيفاً مسوداً كالنيلج ومدة المرض في القرحة أطول عادة بحيث إذا كان الداء قديماً من مدة 18 شهراً أو سنتين ولم تصحبه الكاشيكسيا السرطانية يمكن الحكم بالقرحة عادة. ومتى ظهر الورم السرطاني بأوصافه السابقة الذكر يتعين التشخيص زيادة ولكن قد تشاهد في القرحة المعدية سماكة الحوافي والاندماج بحيث تلتبس بالسرطان خصوصاً إذا كان مجلسها البواب وإذا التحمت تعقبها ندبة توجب ضيق فتحة البواب وتعقب ذلك أعراض توجب الشبهة في التشخيص.

وعلى كلا الأحوال فان أعراض السرطان المعدي كلها إذا سردناها على انفرادها كالآلام والقيء البسيط، القيء المدمم والنزيف المعدي والأورام وسوء الهضم والأعراض العامة ربما لا يتحقق التشخيص إلا في أحوال مخصوصة وباجتماعها يسهل التشخيص غالباً.

وقد زعم بعض المؤلفين (فان دين ويلدين) إن سرطان المعدة يتميز بفقد إفراز حمض الكلورايدريك. ومن المعلوم أن الحوامض العضوية تشاهد في مبدأ الهضم (خليك ونبيذ)، في العصير المعدي وحدها وبعد نصف ساعة تقريباً يبدأ ظهور حمض الكلورايدريك مع الحوامض العضوية ثم تمتص الحوامض العضوية ويبقى حمض الكلورايدريك وحده (ايوالد)، فيقال إن إفراز حمض الكلورايدريك يمتنع إذا كانت المعدة مصابة بالسرطان. ويعلم ذلك بإعطاء المريض تدبيراً غذائياً مخصوصاً وبعد مضي 4 إلى 5 ساعات أي متى وصل الهضم إلى الدرجة الثالثة الموافقة لامتصاص الحوامض العضوية من العصير المعدي يستخرج الكيموس بواسطة ممص أو بواسطة إسفنجة ثابتة في مجلس مرئي أو بواسطة أنبوبة فوشية، وبعد ترشيحه ويبحث فيه عن حمض الكلورايدريك بجواهره الكشافة وهي الميتيل البنفسجي وأحمر القونغو والأخضر اللماع. وإنما لا يحتاج الحال إلى التطويل في هذه المسألة لأن المشاهدات أثبتت عدم صحتها. وشوهد وجود حمض المورياتيك في عصير المعدة المصابة بالسرطان، وشوهد فقده في بعض النزلات المعدية البسيطة، ولا يمكن الارتكان على نتيجة الجواهر الكشافة المذكورة في إثبات وجود حمض المورياتيك وعدمه (فاج).

ولا يكفي تشخيص سرطان المعدة وحده بل يلزم تعيين مجلسه بقدر الإمكان أما سرطان الفؤاد والقوس الصغير فإنه يعسر الوصول إليه بالجس، وسرطان الفؤاد يمتد عادة إلى طرف المريء ويتسبب عنه ضمور المعدة وتمدد المريء بسبب وقوف الأغذية في المريء في حذاء فتحة الفؤاد الضيقة، وعدم وصولها إلى المعدة وبالمجس المرئي ذي الزر الزيتوني يمكن تحديد موضع الضيق ودرجته، وفي هذه الحالة يحصل القيء بعد الأكل بقليل. وأما سرطان البواب فإنه يوجب تمدد المعدة بسبب تراكم الأغذية فيها وعدم إمكان المرور من فتحة البواب الضيقة وتنتهي الأغذية بالخروج بالقيء بعد الأكل ببعض ساعات ويمكن الإحساس بالورم السرطاني وتحديده بسهولة بالجس عدة وتظهر الأعراض هنا بسرعة بسبب اضطراب التغذية الذي يبعث على تقدم الكاشيكسيا السرطانية.

وأما سرطان القوسين المعديين وسطحي المعدة الذي لم يصل إلى فتحتيها فإنه يتميز بسيره الأقل سرعة وحصول الاضطراب الهضمي والكاشيكسيا ببطء بسبب استمرار

التغذية نوعاً. ويتميز الورم السرطاني للقوس العظيم بسهولة الوصول إليه عادة بالجس وزيادة تنقله تبعاً لفراغ المعدة أو امتلائها (الإنذار) إنذار سرطان المعدة خبيث دائماً وينتهي بالموت وإنما يختلف الخطر باختلاف سن المريض ومجلس السرطان طبقاً لما ذكرناه.

(المعالجة) المعالجة في سرطان المعدة لا تكون إلا عرضية ضرورة، والغرض منها مساعدة التغذية ومداركة سوء الهضم بالاعتناء في التدبير الغذائي وانتخاب الأغذية السهلة الهضم، أو الاقتصار على الحمية اللبنية أو تعاطي مسحوق اللحم أو الشوكولاتا أو الكوكاو في اللبن، ويستعان على الهضم بالقلويات وبقية الأدوية التي سبق ذكرها في معالجة سوء الهضم.

ويعطى المورفين والكوكايين والكورايين في قليل من ماء الجير ضد الآلام (ماء جير 100جـ كلورايدرات المورفين 0.02 أو الكورايين 0.010 والكوكايين 0.30) قبل الأكل أو تفعل الحقن المورفينية.

وضد القيء تعطى قطع الثلج ويؤخذ الطعام السائل مثلجاً في هيئة سوندرمه بمقدار قليل في المرة. أو تتبع الحمية اللبنية وإذا اصطحب القيء بتمدد المعدة يفعل الغسيل المعدي بالحمض وتستعمل المحلولات القلوية (2جـ من كربونات الصودا في ليتر ماء) أو المضادة للعفونة كحمض الفينيك (1جـ في الليتر) والكورال (5 في الليتر).

من العلاج

وإذا كانت الشهية مفقودة يمكن تغذية المريض بالجس المرئي وإذا كانت فتحتا المعدة أو إحداهما ضيقة جداً تفعل الحقن المسقيمية المغذية (كوبة لبن يضاف إليها صفار بيضة أو اثنتين وملعقتا ببستون سائل أو يعوض اللبن بالمرق).

وفي الزمن الأخير التجأ الحال إلى فعل المعالجة الجراحية لأجل توسيع فتحة البواب الضيقة أو استئصال ورمه أو توصيل المعدة بالاثنى عشري (بيلروت ميلار داكو ستابيان سان الخ..)، وان كانت هذه العمليات خطرة جداً إلا أنه قد شوهدت من بعضها فائدة في استطالة حياة المريض.

الفصل الثالث: (في أمراض الأمعاء)

أمراض الأمعاء تشتمل على الالتهاب والمتقرح والنزيف والدوسنطاريا والانسداد والسرطان والدرن والزهري والديدان والآلام العصبية أي المغص ولككون المغص والإمساك والإسهال تعد من الأمراض العامة يلزم الابتداء بشرحها فنقول:

أولاً: (في المغص)

المغص: يعبر عنه بآلام الأمعاء وتشنجها وهو يتعلق إما بأسباب موضعية وهو الغالب أو يكون ذاتياً عصبياً متعلقاً بالمراكز العصبية أو بالأفعال المنعكسة.

الأسباب منها تجمع المواد الثقيلة وتجمدها داخل الأمعاء وقد يشاهد ذلك عند الأطفال حديثي الوضع متى انحبس العقى عندهم وقد يحصل المغص أيضاً عقب التهيج الميخاتيكي الذي يحدث من وجود أجسام غريبة في الأمعاء كالديدان والفواكة الغضة والتخم المعوية عقب استعمال الماء المجلد مثلاً عند بعض الأشخاص أو أكل بعض الأسماك أو القواقع والخضراوات خصوصاً إذا كان المغص غير تام.

ملحق رقم (2)

رسائل الماجستير والدكتوراه التي أنجزت في كلية طبّ الأزهر

* دراسة ظاهرة الإدمان بين المرضى المترددين على العيادة الخارجية بمستشفى الحسين 1977.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: عبدالعزيز محمد شعبان صيام.

إشراف: أ . د. محمد شعلان.

* مشروعية نقل وزرع الأعضاء. 1978.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: عاطف أحمد حمدي عبدالرؤوف.

إشراف: ا.د فاهم عبدالرحيم أحمد، أ.د. حسن علي أحمد الشاذلي (كلية الشريعة والقانون).

* الآثار النفسية المرتبطة بالعقم عند المرأة 1979.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: خديجة محمد راغب.

إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. أحمد التاجي.

* استخدام القنب الهندي الحشيش في علاج الصرع 1979.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: فتحي محمود عفيفي.

إشراف: أ.د. محمد شعلان، أ.د. إبراهيم محمود وجيه.

* العقم والقلق 1979

رسالة ماجستير مقدمة من ط: فؤاد محمد كامل.

إشراف:أ.د. محمد شعلان، د. شوقي العقباوي، د. لطفي محمد نظيم.

* دراسة إكلينيكية لحالات البوال في الأطفال 1980.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمود عبدالرحمن حموده.

إشراف: أ.د. محمد شعلان، أ. د. محمود طاهر الموجي. د. عبداللطيف عثمان.

* نظرة إلى العلاجات الشعبية للضعف الجنسي عند الرجل 1980.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: عادل محمد مدني.

إشراف: أ.د. محمد شعلان، أ. د. قدري حفني.

* التشخيص المتكامل 1980.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: علي إبراهيم موسى.

إشراف: أ.د. صلاح إبراهيم، أ. د. محمد شعلان، أ.د. أحمد شوقي العقباوي.

* الديناميات النفسية في أسر معتمدي العقاقير والكحوليات 1980.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: احمد جمال ماضي أبو العزايم.
أشراف: أ.د. محمد شعلان، أ. د. أحمد شوقي العقباوي.

* دراسة مقارنة عن أثر العلاج النفسي والعلاج بعقار هيدروكلوريد للكربوكرومين (انتنسابين) في مرضى الصداع النصفي 1980.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد صفوت إبراهيم محمد.
إشراف: أ.د. عبد الرحمن فوزي، أ. د. محمد شعلان، د. عبداللطيف عثمان.

* استخدام عسل النحل في علاج قرح المثانة البلهارسية 1980.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد منصور الكناني
إشراف: أ. د. فاهم عبدالرحيم، د. فاروق إسماعيل الجيوشي.

* دراسة عن لبن الإبل وبولها واحتمالاتها العلاجية 1980.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: صفوت سيد وهبه.
إشراف: أ. د. فاهم عبد الرحيم، أ. د. أحمد شوقي فيظ الله.

* دراسة نفسية لبعض مرضى قرحة الاثني عشر المصريين 1981
رسالة ماجستير مقدمة من ط: إسماعيل محمد يوسف.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. شوقي العقباوي، د. مصطفى أبو عوف.

* تقييم العلاج النفسي للضعف الجنسي. 1981.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: علي عيد أروس سليمان محمد.

إشراف: أ. د. حسن عبد العال، أ. د. محمد شعلان، أ. د. أحمد شوقي العقباوي.

* أثر الهجرة من الريف إلى المدينة على الصحة النفسية 1981
رسالة ماجستير مقدمة من ط: عماد الدين سيد موسى نصير.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. قدري حفني، د. أحمد شوقي العقباوي.

* مآثر العرب في طب العيون 1981.

رسالة دكتوراه مقدمة من ط: عبدالعال حسين فرجاني.
إشراف: أ. د. خليفة كمالي.

* دراسة للتركيب البارانوي في العلاقة بين الجماعات 1982
رسالة ماجستير مقدمة من ط: صبري محمد أحمد عبدالفتاح.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. طارق علي حسن، د. لطفي محمد فطيم.

* القلق والاكتئاب في بيئة صناعية 1982.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: إسماعيل فكري محمد.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، د. أحمد شوقي العقباوي.

* دراسة لعشرين حالة لمرضى المسالك البولية باللغة العربية 1982.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: شريف أحمد راشد أبو المجد.
إشراف: أ. د. فاهم عبدالرحيم، أ. د. طه مصطفى أبو كريشه (كلية اللغة العربية، أ. د. أحمد جمال الدين عبدالرؤوف.

* دراسة اكلينيكية وتحليلية لعشرين حالة من حالات المسالك البولية باللغة العربية 1982، رسالة ماجستير مقدمة من ط: ابتهاج محمد المصليحي مصطفى.
إشراف: أ. د. فاهم عبدالرحيم أحمد، أ. د. محمد عبدالرحمن الكردي، د. فاروق إسماعيل الجيوشي.

* دور الضحية وأسرتها في التهيئة لتعرضها للعدوان الجنسي 1982.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: السيد احمد علي القط.
اشراف: ا. د. محمد شعلان، ا. د. عادل صادق، ا. د. قدري محمود حفني.

* استخدام المناقشات الجماعية في قياس اتجاه القرويين نحو تنظيم الأسرة. 1983.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد أحمد عويضة.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. نبيل يونس، ا. د. قدري حفني.

* دراسة المظاهر العصبية والنفسية المصاحبة للشباك 1983.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: علاء الدين بدوي فرغلي.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. سميحة محمد عبدالمنعم، د. عبداللطيف عثمان.

* دراسة اكلينيكية على عينة من المتعاطين المصريين للعقاقير النفسية 1983.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: مصطفى النماس حامد إبراهيم.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. صالح ثابت.

* السلوك الجنسي لمرضى الصرع من الرجال المصريين 1983.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد هاشم كمال هاشم.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عادل الدمرداش، د. عبداللطيف عثمان.

* دراسة تخطيط الدماغ الكهربائي في حالات سلس البول الليلي الأولي في الأطفال 1983 رسالة ماجستير مقدمة من ط: شورى يوسف درويش.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. سميحة محمد عبدالمنعم، أ. د. عبداللطيف عثمان.

* العلاقة بين المهدئات العظمى واضطرابات الجهاز الهرمي الإضافي 1983.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: يوسف أبو السعود موسى الزنخري.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عادل صادق.

* العلاجات الشعبية في مجال العقم عند النساء.
رسالة دكتوراه مقدمة من ط: عادل محمد المدني.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. نبيل يونس، أ. د. قدري حفني.

* القيادات المحلية لجماعات تفاعلية كوسيلة للتثقيف الصحي 1984.
رسالة دكتوراه مقدمة من ط: محمد فؤاد كامل.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. قدري حفني، أ. د. أحمد شوقي العقباوي.

* دراسة وبائية لاضطراب السلوك في أطفال المدارس الابتدائية 1984.

رسالة دكتوراه مقدمة من ط: محمود حمودة.
إشراف: أ. د. محمد شعلان.

* دراسة في ظاهرة الاغتصاب الجنسي 1984.
رسالة دكتوراه مقدمة من ط: عدنان ديب إبراهيم عاشور.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عمر عبد المحسن الجارم، أ. د. قدري محمد حفني، أ. د. عماد الدين سلطان.

* دراسة مقارنة عن أثر بعض العقاقير في علاج المرضى المصابين بنوبات القصور الدموي المخي العابرة 1984.
رسالة دكتوراه مقدمة من ط: محمد صفوت محمد إبراهيم.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عبداللطيف عثمان، لواء طبيب/ صالح حسن ثابت.

* الاضطرابات النفسجنسية في الرجال 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: داوود عبد الغني محمد النجدي.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عادل صادق.

* دراسة في الخصائص النفسية والفسيولوجية للمدخّنين 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: مصطفى حماد ماضي.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عادل الدمرداش.

* دراسة اكلينيكية لمشاكل المسنيين العصبية والنفسية 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمود محمد عيد السيد صالح.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. سميحة محمد عبدالمنعم، د. عبداللطيف موسى.

* الطب واللغة العربية، دراسة في تعليم الطب 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: أحمد محمد المتولي خيال.
إشراف: أ. د. محمد شعلان.

* دراسة وبائية اكلينيكية مقارنة حول استخدام المهدئات الصغرى في محافظتي القاهرة والبحر الأحمر 1984.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: طاهر عز الدين عبدالمقصود.

إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عادل الدمرداش، أ. د. عبداللطيف موسى عثمان.

* دراسة بعد المظاهر النفسية للشقيقة في مجموعة من المرضى المصريين 1984.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: السيد عادل عمر عفيفي.

إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عبداللطيف موسى عثمان، د. زين العابدين درويش.

* دراسة اكلينيكية لمشاكل المسنين العصبية والنفسية 1984.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمود محمد عبد السيد صالح.

إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د سميحة محمد عبدالمنعم، د. عبداللطيف موسى.

* دراسة ظاهرة الجماعة في الاعتماد على العقاقير 1984.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: عصام الدين محمد صلاح الدين.

إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. محمد محمد سيد خليل.

* قياس اتجاهات طلاب الطب نحو مشاكل شباب الريف 1404هـ ، 1984م.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد عبدالواحد رياض.

إشراف: أ. د. محمد شعلان،أ. د. قدري حفني، د. محمد خليل.

* عسل النحل في غيار الجروح 1984.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: عبدالرحيم عبدالهادي شتا.

إشراف: أ. د. فاهم عبد الرحيم، أ. د. احمد مسعد، أ. د. أحمد عبدالحميد.

* تأثير الجو الأسري والوسط الاجتماعي على الحالة النفسية والصحية في المسنين 1984.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: رفعت عبدالعزيز السيد.

إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عبدالعظيم محمود عاشور.

* التعبير بالرسم في إطار الجماعة 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: رامز طه محمد.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. فوزي حفني.

* دراسة في ختان الإناث 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد عبدالله بدوي.
إشراف: أ. د. محمد شعلان.

* دراسة لعشرين حالة لمرضى المسالك البولية باللغة العربية 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد حنفي محمود يونس.
إشراف: أ. د. فاهم عبدالرحيم أحمد، أ. د. طه مصطفى أبو كريشة (كلية اللغة العربية).
د. أحمد جمال الدين عبدالرؤوف.

* ختان الإناث طبيا وفقهياً. 1984.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: إبراهيم أحمد عبدالمجيد.
إشراف: أ. د. فاهم عبدالرحيم، أ. د. عبدالفتاح الشيخ، (كلية الشريعة والقانون)، د. أحمد جمال الدين عبدالرؤوف.

* دراسة اكلينيكية للجوانب النفسية التي تصاحب جراحات استئصال الرحم 1985.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد خالد صلاح محمد حلمي.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. نبيل يونس، د. عادل المدني.

* دراسة اكلينيكية للجوانب النفسية المصاحبة لجراحة ربط قناتي قالوة 1985.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: إسماعيل عبدالوكيل محمد.
إشراف: أ. د. جمال أبو السرور، ا. د. فتحي عفيفي، د. محمود عبدالرحمن حمودة.

* دراسة في العلاقة الطبيبية المريضية وأثرها في العلاج 1985.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد جمال عبد الغني.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، ا. د. أسامة مختار، أ. د. محمد محمد سيد خليل.

* معالجة حصوات المسالك البولية في العصر الإسلامي 1405هـ - 1985م.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: صلاح عبدالحميد أحمد عطا الله.
إشراف: أ. د. فاهم عبدالرحيم، د. محمد مبروك بدر.

* نسبة الفيروينوليسين (عامل السيولة)، في مرضى استئصال البروستاتا 1986
رسالة ماجستير مقدمة من ط: عدلي محمد سعيد عبده.
إشراف: أ. د. احمد مسعد زكي، د. حسين سيد عمرو.

* دراسة السلوك الجنسي لمرضى الصرع الإناث.
رسالة دكتوراه مقدمة من ط: محمد هاشم كمال هاشم.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، أ. د. عادل الدمرداش، د. عادل مدني.

* دراسة اكلينيكية لأثر هجرة الآباء القرويين إلى الخارج على الصحة النفسية لأبنائهم في سن المدرسة الابتدائية 1987.
رسالة ماجستير مقدمة من الطبيب: عبدالحكيم محمد السيد دياب.
إشراف: أ. د. محمد شعلان، د. مصطفى رضا أبو عوف، د. محمد عبدالرحمن حمودة.

* دراسة المشاكل النفسية لعينة من المصريين العاملين بالسعودية والمقيمين بالرياض 1987.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: ماهر عبدالله أحمد.
إشراف: أ. د. محمد شعلان.

* دراسة نفسية طبية اجتماعية لأوضاع عينة من المتخلفين عقليا داخل وخارج أحد مستشفيات الأمراض العقلية (الخانكة).
رسالة ماجستير مقدمة من ط: عبدالله أمين محمد.
أشراف: أ. د. أحمد شوقي العقباوي، د. مصطفى رضا، د. محمود عبدالرحمن حمودة.

* دراسة مقارنة في علاج بعض حالات التلعثم لدى الأطفال المصريين 1987.
رسالة ماجستير مقدمة من ط: حسام الدين حسين فهمي.
إشراف: أ. د. أحمد شوقي العقباوي، د. محمود عبدالرحمن حمودة.

* دراسة نفسية واجتماعية طبية لأوضاع عينة من المتخلفين عقليا داخل وخارج أحد مستشفيات امراض العقلية (الخانكة) 1987.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: عبدالله بدري أمين.

إشراف: أحمد شوقي العقباوي، د. رضا أبو عوف، د. محمود عبدالرحمن حمودة.

* جماعة العمل وأثر الانتماءات المختلفة على تماسكها 1987.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: محمد عبدالظاهر سيد أحمد.

إشراف: أ.د. أحمد شوقي العقباوي، د. مصطفى رضا أبو عوف، د. سلمى بدر الدين.

* معالجة عسر واحتباس البول عند العرب 1988.

رسالة ماجستير مقدمة من ط: سلامة عبدالحميد محمد عبدالعزيز

إشراف: أ. د. فاروق إسماعيل الجيوشي، د. السعيد محمد موسى.

المحاضرة الثَالِثَة

تَعْريبُ العُلوم الصّحيَّة ضَرُورة حضارية

الدّكتور أحْمد شيخ السروجية
أستاذ مُشارك في قسم الجراحة العامة والغدد الصماء
كليّة الطب - الجامعة الأردنية

السبت 22 شوال 1409هـ الموافق 27 أيار 1989م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن اللغة مهمة جداً في تطور الأمة لا بل البشرية جمعاء. وهي من أهم العوامل التي تؤلف المجتمعات لتتكون منها الأمم والشعوب. فقد قال الرسول الأعظم "أيها الناس: الرب واحد والأب واحد وأن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب أو أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي".

إن العودة إلى البدايات الحضارية تبين لنا أن الحضارات التي استمرت أو كان لها تأثير بالغ في التاريخ الإنساني هي حضارات معدودة. ولعل اندثار اللغات العربية القديمة كان من العوامل المهمة في التقليل من شأن حضارات البلاد العربية، وجعل اعتماد الحضارات المتأخرة عليها مبتوراً.

إن الحضارة التي نعيش في كنفها الآن، شئنا أم أبينا، هي الحضارة الغربية التي أعطيت نقطة بداية في عصر النهضة الأوربية الحديثة. وهي كباقي الحضارات لها امتداد في التاريخ، إذ لا يمكن أن تبدأ حضارة من فراغ. ومن الحقائق التاريخية التي لا يستطيع أحد نكرانها، هي أن الحضارة العربية الإسلامية كانت تسبق الحضارة الغربية مباشرة. لقد اعتمد الأوروبيون على الحضارة العربية الإسلامية لتخرجهم من ظلمات عصورهم الوسطى عندما تتلمذوا في المعاهد العربية في صقلية والأندلس وغيرهما. ومن المعروف أيضاً أن تأثير الحضارة العربية الإسلامية على الغربيين سبق بدايات عصر النهضة بكثير، إذ نقل عن العربية الكثيرون أمثال ابيلار الذي تعلم العربية في بلاد الشام، وحرار الذي تعلمها في الأندلس [1]. ولكن ذلك لم يكن ذا تأثير كبير، لأن

الترجمة كانت إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة المتعلمين آنذاك. لقد تدنى الاهتمام باللغة اللاتينية منذ القرون الميلادية الأولى حتى القرن العاشر الميلادي، فلم تعد لغة خاصة بأي قوم، ولم يكن يتقنها إلا قلة من المتعلمين الذين احتاجوا إلى جهد واعٍ لإتقانها، لأن اللغة اللاتينية كانت بالنسبة لهم لغة أجنبية [٢]. وكان معظم المتعلمين من رجال الدين والارستقراطيين الذين وظفوا المعارف لخدمة أغراضهم، والمحافظة على مكتسباتهم. لقد كانت اللغة اللاتينية غريبة تماماً عن المواطن الأوربي العادي إذ كان العاملون في المدن وبخاصة الفنيين والحرفيين والتجار يستعملون اللغات الأوروبية المحلية بشكل تام تقريباً مما أقصاهم عن جل المعرفة المدونة في الماضي أو المعرفة المعاصرة التي ترعرعت في الحضارات المجاورة[٣].

لقد ذاعت شهرة دانتي باعتباره من كبار الرجال المؤثرين والفعالين في قدح زناد عصر النهضة الأوروبية عندما كتب الكوميديا الإلهية. ولم تنل الكوميديا الإلهية تلك الشهرة الذائعة بسبب ما احتوته، أو لأن دانتي استلهم أبا العلاء المعري أو ابن عربي [٤]، ولكن أهميتها الكبرى تكمن في اللغة التي كتبت بها. لقد كانت الكوميديا الإلهية أول عمل يكتب بلغة محلية أوربية [٥، ٦]. كان ذلك العمل ثورة على اللغة اللاتينية التي احتكرتها رجال الدين والارستقراطيون الأوروبيون الذين لم يكن لديهم أي حافز لتطوير العلوم لأنهم ينعمون بكل مباهج الحياة المعروفة في عصرهم، ولم يكن المواطن الأوروبي العادي يشكل أي خطر عليهم، لأن البون بينه وبين المعرفة شاسع. إن كتابة الكوميديا الإلهية باللغة الايطالية الوطنية التي يفهمها المواطن العادي هي الثورة الحقيقية التي أعلنها دانتي الذي عبر عن ذلك بقوله "إن هناك الكثيرين من ذوي العقول الممتازة الذين لم تتح لهم فرصة التعلم نتيجة الصدا الذي اعترى العادات الحسنة في العالم، ومن هؤلاء الأمراء والبارونات والفرسان وجمع غفير من عامة الناس، ويستوي في ذلك الرجال والنساء، وهم يستعملون اللغة الايطالية المحلية ولا يعرفون من اللاتينية شيئاً يذكر" [٧]. لقد كانت تلك الثورة على اللغة اللاتينية النبراس الحقيقي الذي أنار شعلة العلم في أوروبا آنذاك. وقد حذا حذو دانتي الكثيرون من رواد النهضة الأوروبية الحديثة ومنهم

ميكافيللي [٨]، وأعتقد أن شهرته بصفته فيلسوفاً سياسياً رائداً تؤول بالدرجة الأولى إلى استعماله اللغة الايطالية الوطنية في كتاباته أيضاً، فقد وزع كتاب الأمير على شكل مخطوط، وَنُسِخَ عدة مرات قبل أن يطبع بعد وفاة ميكافيللي، ولم تمض عشرون عاماً حتى كان كتاب الأمير قد طبع للمرة العشرين، ومع ذلك يقول كريستيان غاوس في القرن العشرين في مقدمته لكتاب الأمير، إن ميكافيللي لم يهتم بتثقيف المواطنين بل اعتبرهم جامدين هامدين [٩]. إنني بكل تواضع أعتقد أن إعادة قراءة كتاب الأمير آخذين بعين الاعتبار اللغة التي كتب بها ستثبت أن ميكافيللي باستعماله اللغة الايطالية اهتم بتثقيف المواطنين أضعاف بل مئات المرات أكثر مما استطاعه كبار المهتمين بشؤون التعليم وعلى رأسهم معاصره ايرازموس الذي دعا إلى تعليم اللاتينية للأطفال منذ نعومة أظفارهم حتى ينجح برنامجه التعليمي، ويعلق جيمس باون على ذلك بان دعوة ايرازموس هذه تنحصر دون أدنى شك في طبقة الأغنياء من المثقفين فقط[١٠].

بعد بدايات عصر النهضة، ابتدأ تدوين العلوم المختلفة باللغات الأوربية المحلية مثل الايطالية والفرنسية والانجليزية والألمانية وغيرها. لقد كانت هذه الخطوة أكبر عامل مؤثر في انتشار المعرفة بين المواطنين العاديين في أوروبا، فحفزهم ذلك على سبر أغوار المعرفة وتطويرها حتى وصلوا إلى المكانة التي نشاهدها هذه الأيام، وعليه حققوا نبوءة اختصاصي العلوم الإنسانية نيبريجا الذي أنشأ قواعد أول لغة أوروبة حديثة وبرر ذلك إلى إيزابيلا ملكة اسبانيا بتعليقه المشهور "اللغة هي الأداة المثلى (أو اليد الطولى) للأمبراطورية Language is the perfect instrument[١١].

وإذا عدنا أدراجنا إلى بدايات الحضارة العربية الإسلامية نلحظ التطور ذاته، إذ ورثت حضارتنا العربية الإسلامية الحضارة اليونانية بعد أن اكتمل نقل المعرفة إلى اللغة العربية فأخذت مكانتها المعروفة بين الحضارات الرائدة في التاريخ الإنساني. ولعل الكثيرين منا لا يقف عند الحضارة الرومانية وقفة طويلة لأنها لم تكن رائدة حقا، وإنما كانت امتداداً ممسوخاً للحضارة اليونانية، وربما كان سبب ذلك غياب أي جهد كبير يشير إلى نقل المعرفة اليونانية إلى اللغة اللاتينية. بل على العكس من ذلك ذوت اللغة

اليونانية نتيجة الفتح الروماني حتى لم يبق في الغرب، كما يقول برتراند راسل، من القادرين على مطالعة الكتب اليونانية إلا أفراد قلائل أصابوا من التعلم حظا نادراً[١٢].

إن ما حدث للحضارة اليونانية تكرر بصورة مماثلة بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية، فاللغة الحضارية التي ذابت فيها كل العلوم آنذاك هي اللغة العربية فقد أتقنها أبناؤها العرب والمستعربون، وابلى الطرفان فيها البلاء الحسن لتصبح حضارة إنسانية عالمية الانتشار بغض النظر عن الأصل العرقي والمعتقد الديني لمن شارك في صنعها. لقد كانت حضارة إسلامية مذهباً وعربية لساناً، تماماً كما إن الحضارة الغربية الحديثة مسيحية مذهبا وأوربية اللغات لساناً، وما السبق الذي تستحوذه اللغة الانجليزية في هذه الحقبة التاريخية التي نعيشها إلا نتيجة للهيمنة الاستعمارية الأمريكية التي تعتبر امتداداً للهيمنة الاستعمارية الانجليزية. إن اضمحلال الحضارة العربية الإسلامية كان شبيهاً لما حدث للحضارة اليونانية أيضاً، إذ أغفل رومان الحضارة العربية الإسلامية، ألا وهم الأتراك، أهمية العامل اللغوي في البناء الحضاري، فلا هم اتخذوا اللغة العربية وعاء لغوياً لهم ولا هم قاموا بنقل المحتوى المعرفي إلى اللغة التركية ليرثوا الحضارة العربية الإسلامية. لقد اعتمدوا على قوتهم العضلية تماماً كما فعل الرومان، وليس من قبيل المصادفة أن ظللت دولتهم قرونٌ من الظلام الحضاري، وفي هذا الصدد يذكر ستانفورد شو، في مجلديه عن الإمبراطورية العثمانية، أن الأتراك بلغوا مرتبة عالية في الشعر والنثر في بعض الأحيان في الوقت الذي أصاب فيه الوهن العلوم التقليدية والمؤسسات الثقافية العربية الإسلامية[١٣].

إن من المعروف أن البدايات الحضارية الإغريقية نشأت في آسية الصغرى وصقلية وجنوب ايطاليا وكريت، وهي نقاط التماس مع حضارات العراق وبلاد الشام ومصر وقرطاجة [١٤]، وهي حضاراتنا العربية القديمة وليست السامية كما يصفها المستشرقون وتلامذتهم أسوة بشلوتزر النمساوي الذي أدخل هذا المصطلح الخاطئ عام 1781م[١٥]، كما أن كبار فلاسفتهم أمثال طاليس وأفلاطون وغيرهما امضوا سنوات طويلة في بلادنا العربية [١٦] مما يوحي بوجود فترة من الزمن تم فيها نقل المعرفة من اللغات العربية القديمة إلى اللغة اليونانية قبل أن تبدأ النهضة الإغريقية. فمن المؤكد أن المصريين

والبابليين والآشوريين والكنعانيين والاموريين والفنيقيين وغيرهم من الأمم العربية القديمة كانوا أسبق من الإغريق في كثير من العلوم التي تنسب دونماً تحقيق علمي رصين إلى اليونان، كالطب والفلك والهندسة والحساب وغيرها من العلوم. كما أن نقل المعرفة إلى اللغة الإغريقية جاء بعد أن استلهم اليونان الحروف الأبجدية العربية في نحت حروفهم الأبجدية التي تحتفظ بتسميتها العربية (ألفا بيتا) إلى يومنا هذا[١٧ ، ١٨].

إن التشابه بين ظروف النهضة الإغريقية والنهضة العربية الإسلامية والنهضة الأوربية الحديثة كبير جداً. ففي الحالات الثلاث كان نقل المعرفة إلى لغة المواطنين العاديين أسبق من إنتاجها، واستمرت شعلة النهضة متقدة باستمرار بقاء لغة المعرفة قريبة مفهومة من قبل عامة الناس، وانطفأت الشعلة بابتعاد لغة المعرفة عن عامة الناس كما حدث عندما ورث الرومان والأتراك الحضارتين اليونانية والعربية الإسلامية.

إن انبعاث أية نهضة حضارية يبدأ بنقل المعرفة إلى لغة القوم الذين يصبون إلى التقدم كما أسلفنا، وأن تعلم اللغات الأجنبية في تلك الفترات مهم جداً في تحقيق ذلك حتى تعم الفائدة على جميع أبناء الأمة ويتمكنوا من المشاركة في إنتاج المعرفة وتطويرها. وكثيرا ما يحدث أثناء ذلك أن يبخل المؤهلون لتنفيذ عملية نقل المعرفة بجهودهم مختلقين أعذاراً عديدة يخفون بها خوفهم على مكتسباتهم إذا انتشر العلم بين الناس كافة، ولا يكتفون بذلك بل يشنون حربا شعراء على من يشق صفوفهم. واعتقد أن حملات التشهير المعروفة جيدا التي تعرض لها حنين بن اسحق [١٩] قد تكون مثلاً على ذلك، وللأسباب نفسها كان امبروز باري أحد جراحي عصر النهضة عرضة للسخرية من زملائه عندما كتب باللغة الفرنسية ملخصه الوافي Fabrica الذي يصفه المتأخرون عنه بأنه إسهام كبير في تيسير علم الجراحة[٢٠]. أما ديرر رائد الفن الألماني في عصر النهضة فقد ساعد في تأسيس اللغة الألمانية الحديثة عندما أصر على استعمالها في كتاباته رغم نصح أصدقائه بالعزوف عن ذلك وحثه على استعمال اللغة اللاتينية[٢١].

إن ما يتعرض له معاصرونا الذين يدعون إلى تعريب العلوم ما هو إلا استمرار للأمثلة السابقة. ولعل عملية التعريب الجريئة التي نفذها إخواننا في الجزائر بعد اندحار الاستعمار الفرنسي توضح ما ذكرت بصورة مكبرة. فقد ارتفعت أصوات المتفرنسين هناك

دفاعاً عن التعليم بالفرنسية خوفاً من التدني المرتقب في المستوى التعليمية [٢٢]، لقد استعمل المتفرنسون الجزائريون كل الحجج التي نسمعها في المشرق العربي لمنع التعريب، إلا أن الاختلاف بيننا وبين اخوتنا هناك كبير جداً. لقد استعمل المتفرنسون في الجزائر كل الحيل لمنع التعريب في جميع المراحل التعليمية بدا من الابتدائية بحجة الخشية على تدهور المستوى العلمي. وهنا يجدر بنا أن نسأل مثقفينا في المشرق العربي إذا أمكن أن نجد أحدا بينهم يؤيد التعليم بلغة أجنبية إذا بادرنا بالدعوة إلى تعجيم التعليم المدرسي؟ يقيني أن الجميع سوف يستنكرون ذلك بقوة لنفس الأسباب التي يلتمسونها لابقاء التعليم باللغة الأجنبية في المرحلة الجامعية! إلا أن إخواننا في الجزائر بحزم المؤمنين بتوفير العلم للجميع تخطوا حاجز الخوف النفسي وأقدموا على تعريب جميع مراحل التعليم.

إن ظروف النهضة العربية الحديثة معروفة لكم يجدا منذ بداياتها أثر الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام. وقد اندحرت فرنسا نتيجة لصراعها مع بريطانيا، وعليه تأخر الغزو الاستعماري قرناً من الزمان حتى اتفقت القوتان الاستعماريتان على تقسيم المشرق العربي بينهما فيما يعرف بمعاهدة سايكس بيكو الشهيرة. لقد أعطي الصراع بين القوتين الاستعماريتين العنصريتين متنفساً لمصر محمد علي بحكمة الذاتي المستقل ليبني مصر قوة عربية مؤثرة فأرسل بعثاته إلى فرنسا. ولما عاد المبعوثون أنشؤوا المدارس العالية واعتمدوا اللغة العربية وسيلتهم في نقل المعرفة، فتقدمت مصر بخطى واثقة نحو التحديث، فأسسوا المصانع وبنوا جيشاً مهاباً وأسطولاً قوياً في فترة زمنية قصيرة، فكانت مصر آنذاك متقدمة على اليابان وربما على ألمانيا. أرعبت خطوات مصر الجريئة هذه المتربصين بها وتآمروا عليها مع الباب العالي، فدحروا محمد علي وأغرقوا ورثته بالديون، مما أدى الى احتلال مصر والسيطرة على تقدمها العلمي بالدرجة الأولى، فكان من أهم انجازاتهم إقصاء اللغة العربية عن احتواء العلوم الحديثة التي ابتدأ الطهطاوي وتلامذته في تحقيقها[٢٣]، وحولوا مصر إلى مزرعة للقطن يوفرونه لمصانعهم .

لقد انطلق المثقفون المصريون في تعريب العلوم أيام محمد علي باستقلالية تامة، فقد نقلوا إلى لغتهم العربية ما يمكنهم من تحقيق الاستقلال الاقتصادي والعسكري وتوفير

المستوى الصحي اللائق بالعصر الذي يعيشون، فترجموا العلوم المدنية والعسكرية ودرسوا الطب باللغة العربية أيضاً. لقد نقلوا المعرفة إلى العربية حسب احتياجاتهم تماماً كما فعل أجدادهم العرب المسلمون عندما نقلوا العلوم اليونانية إلى اللغة العربية توخياً للفائدة التي يبتغون، إذ صدروا في ترجماتهم باستقلالية تامة وليس كما يشير عليهم الآخرون، لأنهم كانوا في مركز قوي يستلهمون حاجاتهم الحياتية، فترجموا الفلك والهندسة والحساب والطب والفلسفة، وأغفلوا ترجمة الآداب اليونانية لأنهم كما أعتقد لم يشعروا بأنها تتهمهم بدرجة تماثل أهمية العلوم الأخرى. لقد صدروا في نقل المعرفة عن حسهم الذاتي. إنني لا أستطيع أن أزعم أن أشعار هوميروس والإلياذة والأوديسا وغيرها من بدائع الآداب اليونانية ليست قيمة، ولكنني لم أعتقد أن العرب المسلمين بما وصلوا إليه من تقدم حضاري يشهد له المنصفون العارفون من جميع الأمم، لا أعتقد أنهم لم يطلعوا على **الآ**داب اليونانية أو أن تذوقها صعب على سليقتهم. لذا فإنني أعتقد أن ادوارد جيبون في كتابه "اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية" يتعسف كثيراً إذ يقول "إن المسلمين حرموا أنفسهم من الفائدة الكبيرة المتوخاة من التفاعل المألوف مع اليونان وروما، الذي يؤدي إلى معرفة العصور القديمة، ونقاء الذوق، وحرية الفكر"؛ وعندما يقول أيضاً "ولربما أثارت الأساطير الهومرية اشمئزاز أولئك (العرب) المتعصبين القساة". إلا أن جيبون قد يكون مصيباً عندما يقول "وقد عزف العرب عن دراسة أية لغة أجنبية لاعتزازهم الكبير بفصاحة لغتهم القومية" [٢٤]. إن عدم ترجمة الآداب اليونانية إلى اللغة العربية يمكن أن يفسر بأن العرب المسلمين، بالإضافة إلى ما بلغته آدابهم من سمو، لم يشعروا أن هناك فائدة كبيرة مرجوة من دراسة الآداب اليونانية كما يزعم جيبون، لأن العرب المسلمين كانوا يصدرون في الترجمة عن أولويات مدروسة محسوبة ينتفعون بها وفق حاجاتهم الحياتية. ولذلك فإن التماس العذر لهم لأنهم لم ينقلوا الآداب اليونانية أو محاولة إثبات أنهم ترجموا شيئاً منها [٢٥] أمر لا يستحق الكثير من الجهد أو البحث وقد يوقعنا في كثير من التعسف. أنني لا أستطيع أيضاً أن أزعم أننا لم نفد من نقل الآداب الأوروبية الحديث والمعاصرة إلى لغتنا العربية، فقد عرفنا من خلال ذلك شكسبير وفكتور هوجو وتولستوي واليوت وكثيرين غيرهم، ونقلنا المسرح والكوميديا والتراجيديا والمنولوج والديالوج، وطورنا الشعر العربي فحررناه من قافيته الموسيقية الساحرة حتى لم نعد

نستطيع أن نفرق بين النثر والشعر. لقد أفدنا من ذلك الكثير الكثير. ولكننا بقدر ما استحدثنا في لغتنا الأدبية من عبارات جديدة وتشبيهات عصرية خلابة بقدر ما أبعدنا لغتنا عن العلوم في شتى مناحيها، حتى أصبحت كلمات المونولوجيست والسناريست والكوافير والمتر والشيف وقاموس كبير من هذه الكلمات مألوفة لدينا، بينما تثير فينا السخرية كلمات مثل الانتان والموات والخمج والمبضع والكاحل والزند والكعبرة وغيرها. ملخص القول إن أسلافنا العرب المسلمين صدروا في نقل المعرفة إلى اللغة العربية عن أولوياتهم المدروسة، بينما نصدر نحن ويا للأسف عن أولويات الآخرين المدروسة، وشتان بين الحالتين.

لقد كانت انطلاقة آبائنا وأجدادنا إلى التعريب في بداية هذا القرن انطلاقة قومية، إذ كانت تتنازع الأمة العربية قوى خارجية تحاول تفتيتها، ليس إلى كيانات سياسية هزيلة فحسب، بل إلى أصول عرقية لا يجمعها أي هدف مشترك، أن الآباء والأجداد بإيمانهم القوي تصدوا لكل تلك المحاولات الخارجية حتى اندحرت كل الدعاوي الدخيلة والمدسوسة، وتحققت آخر الانتصارات على أيدي إخواننا في مصر الذين دحروا الدعوة الأخيرة إلى الفرعونية في مهدها معتزين بعروبتهم التي لا تشوبها شائبة [٢٦]. وها هي مصر تستعيد مكانتها كاملة غير منقوصة في العالم العربي بعد ما يزيد على العقد من الزمن عندما انتصر أبناء مصر العربية على أنفسهم. لقد اكتمل انتصارنا القومي إلي أكد عروبتنا التي لن يزعزها المتربصون بها. إلا أن ذلك أدى إلى تراخ غير مقصود في غالبية الأحيان في عملية التعريب، واعتقد أن ذلك يعود إلى عدم وعينا الكامل بعملية التعريب وتأثيرها على عملية التحديث الذي تتطلع إليه الأمة العربية. لقد ازداد عدد المتعلمين زيادة كبيرة في العالم العربي ولم تعد الفرصة متاحة للكثيرين منهم إلى إكمال دراستهم في دول أوروبا أو أمريكا، مما سيؤدي إلى عدم اتقانهم اللغات الأجنبية اتقاناً تاماً، أضف إلى ذلك الغالبية العظمى من خريجي الجامعات في العالم العربية يتوقفون عن الدراسة بعد تخرجهم، والقسم الأكبر منهم لا يتابعون تخصصهم بعد ذلك مما سيؤدي أيضاً إلى ضعفهم المرتقب باللغة الأجنبية، كما أن هناك مجموعات كبيرة من المتخصصين تخصصاً عالياً من الذين أتموا دراستهم بلغات أجنبية غير تلك المعتمدة

في بلادهم مما يضطرهم عندما يعودون لخدمتها إلى دراسة لغة أجنبية ثانية من جديد وبذلك يحرمون بلادهم من المعرفة التي نهلوا منها أو التي تستجد في البلاد التي تعلموا فيها. كما أن طلبة المعاهد العليا وكليات المجتمع التي أخذت في الانتشار في العقدين الأخيرين لا يتمتعون بفرصة الاطلاع عليها أو الدراسة في الكتب العلمية المتقدمة في مجال تخصصهم لعدم توفرها باللغة العربية. ويجب أن لا ننسى خريجي الثانوية العامة الذين لم يحظوا بفرصة التعليم العالي وفيهم الكثيرون من ذوي العقول الممتازة الذين ذكرهم دانتي.

إن من أهم الأسباب التي يعتمد عليها المنادون باستمرار الاعتماد على اللغة الأجنبية في التعليم الجامعي هو التسارع الهائل الذي نشاهده اليوم في تطور المعرفة وتجددها، ويزعمون أننا إذا عربنا العلوم فان ذلك سيحرمنا من متابعة المستجد منه مما سيؤدي إلى تخلفنا عن ركب الحضارة المعاصرة. إن هذا السبب بعينه في رأيي هو السبب الأهم الذي يجب أن يحفزنا إلى الإسراع في عملية التعريب إذا رغبنا في متابعة التقدم المعرفي. فمنذ ثلاثة أعوام ونيف قمت بصحبة أحد الأصدقاء المؤمنين بالتعريب بزيارة رئيس مجمعنا نناقشه في أمور تعريب العلوم الصحية، نستنير بآراءه القيمة المعروفة لديكم، وبحث أجدى السبل لدفع عملية التعريب إلى الأمام، فحدثنا عن تجربة المجمع في ترجمة العلوم الطبية في كلية العلوم في الجامعة الأردنية وقدم لنا عدداً من الكتب التي ترجمت. بعد عودتي إلى البيت أخذت في تصفح أحد الكتب في علم الأجنة فوجدتني بعد ساعات قلائل، وقد جاوزت منتصف الكتاب وأدركت بعد ذلك إنني أحتاج وأنا أتقن اللغة الانجليزية إلى ضعف إن لم يكن أضعاف ذلك الوقت لو أن لغة المادة التي قرأت كانت انجليزية. وتخيلت لو أن كتب الطب متوافرة باللغة العربية لتمكنت من قراءة كتاب جديد كل أسبوع، أو كل شهر. إنني أدركت ما الذي رمى إليه جيمس باون عندما ذكر أن المثقفين الأوربيين احتاجوا إلى جهد واع عندما كانوا يستعملون اللغة اللاتينية، وكيف أن دانتي وميكافيللي وغيرهما فجروا عصر النهضة باستعمالهم اللغات الأوروبية الوطنية، ولماذا تنفق الدول المتقدمة حضاريا الأموال الطائلة لتنقل المعرفة إلى

لغاتها، إنها لا تفعل ذلك من قبيل التعصب القومي. لذلك أعتقد أن تعريب العلوم سيمكن حتى المتخصصين منا متابعة العلوم المستجدة بشكل أوسع وأيسر.

لقد دفعني ذلك إلى القيام بمحاولة تعريب أحد الكتب الطبية المتخصصة، ولم تكن المحاولة سهلة أبداً، ولكنني أدركت أن جهلي باللغة العربية لم يعادله دراسة كبيرة باللغة الانجليزية، إلا أنني بالمثابرة استطعت أن أتدارك شيئا من القدرة على استعمال اللغة العربية وهالني أن درايتي باللغة الانجليزية كانت متواضعة وأخذت تتحسن تحسنا فاجأني وقد كنت معتداً بإتقانها. ولكن المفاجئة الحقيقية لم تكن هذه. لقد تعرضت أثناء الترجمة إلى المصطلحات العربية للمرة الأولى ولا أستطيع أن أنكر أن كثيراً منها كان غريباً جدا إلا أنني وجدت عدداً كبيراً منها يوضح المعنى في ذهني بصورة دقيقة لم أكن أتوقعها. بعد المضي في الترجمة زالت الغرابة وازدادت الألفة فوجدت أن مشكلة التعريب ليست المصطلحات، فلمعظمها مقابل باللغة العربية ومعظم المجامع العربية تقر تعريب بعض المصطلحات، واعتقد أننا في هذه الفترة والتعريب لا يزال يمشي الهوينى بحاجة إلى استعمال المصطلحين العربي والمعرب حتى نألف المصطلح الأول أو نجد مصطلحاً أنسب، ولا أعتقد أن تعدد المصطلحات للمعنى الواحد فيه ضرر كبير يدعو إلى تأخير عملية التعريب، فنحن نعلم أن كثيراً من المصطلحات في اللغات الأجنبية لها أكثر من مترادف، ولا سيّما المصطلحات الجديدة إذ يستعمل كل مركز علمي مصطلحاً خاصاً به لمدة من الزمن حتى يتم الاتفاق على مصطلح واحد.

إن اللغة العلمية ليست المصطلحات فحسب بل إنها أيضاً اللغة الوسيطة التي تربط وتفسر المصطلحات والرموز وكل العمليات العلمية أيا كانت. إن هذه اللغة الوسيطة التي يصفها عبدالله العروي باللسان المقوعد [٢٧] هي المحور الأساسي الذي تقوم عليه اللغة العلمية لتصبح سلسة قريبة إلى الإفهام، وما الدور الذي تلعبه اللغة الأجنبية إلا دور الوساطة بين المصطلحات. إن هذه الوساطة أعجمية تماما في المراجع الأجنبية، وفي أغلب الأحيان تكون ثقيلة بعيدة عن الإفهام لأن الغالبية من المتعلمين لا يتقنونها إتقاناً تاماً، فهم يعودون إلى المعجم بحثاً عن المعنى أو يهملون ذلك فيكون فهمهم لما يقرؤون منقوصا أو خاطئاً، أو يعيدون قراءة الجملة أو الفقرة أو البحث عدة مرات،

يمضون في ذلك ساعات طوالاً في دراسة تحتاج إلى جزء قليل من ذلك الوقت لو كانت اللغة الوسيطة قريبة إلى الإفهام. ولا أعتقد أن أي لغة أجنبية ومهما كانت درجة اتقاننا لها ستكون أسهل علينا من لغتنا الأم. ان درجة اتقاننا للغة الأجنبية تتبدى لنا بصورة واضحة في محاضراتنا ونقاشاتنا العلمية. وقد دأبت في الآونة الأخيرة أن أتابع محاضرات الآخرين، ولا أزعم أنني خير منهم، فأيقنت مدى تدني إتقان المتخصصين منهم للغة الأجنبية. كلنا يعلم ذلك عن وعي أو غير وعي، لأن غالبيتنا في تدريسنا الجامعي لا يستعمل اللغة الأجنبية، ولكننا نستعمل هجينا لغويا لا هو بالعربي ولا هو بالأجنبي، وحتى الذين يتقنون اللغة الأجنبية إتقاناً جيدا يلجؤون إلى تفسير ما يعتقدونه صعباً باللغة العربية. إن الاهتمام يجب أن ينصب على اللغة الوسيطة بنفس الأهمية التي نعيرها إلى المصطلحات، وأعتقد أن مقاومة الكثيرين للتعريب ما هي إلا لتدني القدرة على استعمال لغة عربية وسيطة رصينة مع أن اللوم في معظم الأحيان ينصب على المصطلحات والرموز. وقد أكون متطرفاً عندما أقول: إذا كان هدفنا الأول من التعريب هو جعل المعرفة في متناول عامة الناس بلغة ميسرة قريبة إلى الإفهام، وهذا في رأيي السبب الأهم، فإن اللغة الوسيطة أهم من المصطلحات بكثير حتى لو اقتضى منا الأمر استعمال المصطلحات أو الرموز الأجنبية بعينها. لقد أدرك عمالقة الحضارة العربية الإسلامية ذلك واستعملوا المصطلحات اليونانية دون حرج أو شعور بأن في ذلك ما ينتقص من هويتهم.

إن إتقان اللغة الوسيطة يحتاج إلى دربة ودراية، وأعتقد أن أفضل وسيلة في الوقت الحاضر هي الترجمة، لأن كتابة اللغة العلمية تتوخى الدقة والوضوح والإيجاز في التعبير، وما من شك أن الكتّاب الأجانب وما يتيسر لهم من محررين لغويين متخصصين بلغوا في ذلك شأناً عظيماً يجدر بنا أن نتطلع إليه حتى تتكون لدينا لغة علمية عربية مماثلة. ومن الصعب أن يدرك أي منا ذلك حتى يقوم بترجمة بعض النصوص ترجمة دقيقة واضحة موجزة. إن ذلك يحتاج إلى جهد دؤوب، ولذلك أنصح المؤمنين بالتعريب من الزملاء الأطباء أن يحاولوا ذلك بأن يقوموا بترجمة كتب صغيرة

الحجم في حقل اختصاصهم لأن في ذلك نفعاً كبيراً لهم شخصياً ولزملائهم الأطباء العامين والمتدربين والاختصاصيين أيضاً.

إن التعريب لا يعني العزلة بل على العكس من ذلك سيؤدي إلى نشر المعرفة العلمية بين المواطنين جميعاً وقد يقول قائل وما حاجة المواطن العادي إلى المعرفة المتقدمة، أجل انه ليس بحاجة إلى تفاصيلها، ولكن هناك عدداً قليلاً من الهواة المتخصصين الذين أضافوا للعلم الشيء الكثير ولم يكونوا على حظ كبير من التعليم الأكاديمي، إنهم لا شك قلة قليلة جداً في عصرنا الراهن، ولكن الغالبية من المواطنين العاديين يتلهفون إلى الاستزادة من المعرفة العلمية. وإن استهداف هؤلاء أثناء الكتابة أمر عسير جداً إذ لا يكفي أن يمتلك الكاتب فهماً دقيقاً ومفصلاً لمادته العلمية ولكنه يجب أن يكون ملماً بأساليب الكتابة العلمية إلماماً كبيراً حتى تكون كتابته سهلة مفهومة من قبل الإنسان العادي، وكثيراً ما يكون هذا الإنسان العادي على درجة كبيرة من الثقافة، إلا أنه لا ينتمي إلى ذلك التخصص وهو ما يدعى (layman) بالانجليزية. إن هذا لن يتأتى إلا إذا كانت لغتنا العلمية عربية في جميع مستوياتها المدرسية والجامعية والمتخصصة.

إن صلاحية اللغة العربية لاستيعاب العلوم كلها أصبح أمرا بديهياً وإن بقيت قلة ممن يشكون في ذلك. وأحسن رد عليهم أجده فيما قاله توماس مور عن اللغة الانجليزية في بدايات عصر النهضة إذ يقول "إن اللغة الانجليزية غنية إلى درجة تسمح بالتعبير عن أفكارنا في أي موضوع يتحدث عنه رجل إلى آخر" [٢٨]. لقد قال مور هذا القول عندما كانت اللغة الانجليزية في مهدها فكيف نشكك نحن في قدرات اللغة العربية وقد احتوت قبل ذلك القول بزمن كبير العلوم كلها، وهي الآن أقوى مما كانت عليه في الماضي، وتدعو أبناءها لاستعمالها عوناً لهم في أيامهم المقبلة.

الأستاذ الدكتور رئيس المجمع، السادة الأساتذة الأجلاء، انه لشرف عظيم أن يكرمني رئيس مجمع اللغة العربية الأردني بأن أتحدث عن موضوع التعريب إلى أساتذة أجلاء لهم باع طويل وخبرة فياضة في تعريب العلوم نهلنا منها ولا نزال. لقد أخذتني النشوة عندما شرفني رئيس المجمع بمنحي هذه الفرصة الكريمة، وأحسست بعظم

المسؤولية الملقاة على عاتقي بعد أن عدت إلى نفسي، وودت لو أن شجاعتي وصلت إلى درجة تسمح لي بالاعتذار، ومع علمي بأن الشجاعة مضرة في غير موضعها، وأن للجبن أحياناً فوائد ليست في الحسبان، إذ خانتني شجاعتي مراراً وأنقذني جبني، فأكملت دراستي وتخصصي وسميت ذلك توفياً، وإنني آمل أن أكون قد وفقت في طرح جوانب مفيدة حول التعريب تزيد من إيماننا به لأنني أعتقد أن الإيمان عندما يتحول إلى عمل تهون بسببه جميع المعوقات.

المراجع

(١) ول ديورنت، المترجمون، في "قصة الحضارة"، الجزء السادس من المجلد الرابع، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ، مجلد 17، ص15–22.

(٢) James Bowen: Growth of the vernacular and delline of latin in A History of Western Educations. Vol. 2, Civilization of Europe. Methuen 9 CO. Ltd. London, 1975, pp 166-172.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) مرجع رقم 1، دانتي، ص302–345.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) مرجع رقم 2، Dante,s education and life in Duecento Florence pp 178-182

(٧) Dorothy L. Sayers. Introduction, in Dante: The divine Conedy. 1 Hell. Penguin Books, 1987, pp 49.

(٨) J. R. Hale, Secular Learnining: Educational Reform in Renaissance Europe, 1480-1520, Fontana History of Europe, 1977, pp 283-297.

(٩) كريستيان غاوس، مقدمة كتاب الأمير، في "الأمير" تعريب خيري حماد، تعقيب فاروق سعد، طبعة 12، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982، ص17047.

(١٠) مرجع رقم 2، Erasmus of Rotterdam, pp 330-34.

(١١) مرجع رقم 8.

(١٢) برتراند رسل، الامبراطورية الرومانية والثقافة، في تاريخ الفلسفة الغربية" الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة زكي نجيب محمود، مراجعة أحمد أمين، لجنة التأليف والنشر، الطبعة الثالثة، 1978، ص399–416.

(١٣) Stanford Shaw, Ottoman society, administration and culture in the age of decentralization and traditionalistic reform, in History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol 1. Cambridge University press, Cambridge, 1976, pp 208-298.

(١٤) ول ديورانت، البيئة المحيطة ببلاد اليونان، في "قصة الحضارة"، الجزء الأول من المجلد الثاني، حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ، ص128–134.

(١٥) أحمد سوسة، الساميون والساميون، في "تاريخ حضارة وادي الرافدين"، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983، ص227–230.

(١٦) يوسف كرم، طاليس، ص12–14، أفلاطون" حياته ومصنفاته، ص62–68. في "تاريخ الفلسفة اليوناني"، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

(١٧) أرنولد توينبي، المدينة الهيلينية، في "تاريخ البشرية" جزء 1، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص517–228.

(١٨) مرجع رقم 14، الكتابة والقراءة، ص 371–376.

(١٩) ماهر عبدالقادر محمد، "حنين بن اسحق: العصر الذهبي للترجمة"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1987، ص51–59.

(٢٠) john Davis, Our surgical heritage, in Clinical Surgery Davis J.H., Durker W.R. Gann D.S., et al., Editors, The C.V. Mosby Co., St Louis, Washington D. C., Toronto, 1987, pp 3-29.

(٢١) مرجع رقم 8.

(٢٢) هانية الحسن، مشكلات التعريب في الجزائر، الفكر العربي، العددان 4–5، 1978، ص399–402.

(٢٣) محمد عمارة، "رفاعة الطهطاوي: رائد التنوير في العصر الحديث، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت 1984.

(٢٤) Edward Gibbon, Chapter LII, Lerning of the Arabs, in The Decline 9 Fall of the Roman Empire. The Modern Library, New York, no date, pp 233-234.

(٢٥) فهمي جدعان، هوميروس عند العرب، في "نظرية التراث"، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1985، ص177-218.

(٢٦) مجموعة من الباحثين، عروبة مصر بعد عبدالناصر، الفكر العربي، العددان 4-5، ص185-370.

(٢٧) عبدالله العروي، التعريب، في "ثقافتنا في ضوء التاريخ"، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص207-229.

(٢٨) مرجع رقم 8.

نَـدْوة

تدريس العُلوم الصحيَّــة باللغة العربيَّـــة

أدارهـــــا : الدكتور سميح أبو الراغب

نيابـــــة عن: الدكتور حسن خريس

الأمين العام لاتحاد الأطباء العرب

وَشـارك فـيـهـا :

الدكتور سميح أبو الراغـــب

الدكتور حسام الجراح

الدكتور محمود تقي الدين

السبت 29 شوال 1409هـ الموافق 3 حزيران 1989م

كَلمـة

الدَّكتـور حَسَن خريـس

في افتتاح النَدْوة

بسم الله الرحمن الرحيم

زميلاتي.... زملائي

لقد كانت سعادتي كبيرة أن أتيحت لي فرصة المشاركة في هذه الندوة القيمة لما لموضوعها من أهمية قصوى في حياة أمتنا الفكرية والوجدانية. ولقد كان لي شرف الدعوة إلى تعريب التعليم الطبي والصحي في مناسبات عديدة من خلال نقابة الأطباء الأردنية واتحاد الأطباء العرب ومجلس وزراء الصحة العرب ومجمع اللغة العربية الأردني، ولقد حرمتني ظروف خارجة عن إرادتي شرف مشاركتكم اليوم في أعمال هذه الندوة بسبب ارتباط ملزم خارج الأردن ولقد تكرم أخي الدكتور سميح أبو الراغب مشكوراً بالمشاركة في إدارة الندوة ليسهم معكم بفكره الصافي وعلمه الغزير في إغناء هذا الموضوع مما يساعد في تحقيق الهدف الكبير الذي نصبو إليه جميعاً.

كُلُّنا يعلم أنَّ اللغة هي وعاء العلم والمعرفة ووسيلة التعليم وأداء التفاهم والتواصل بين الناس، واللغة على مستوى الفرد هي مدخل معرفته ومخرج تعبيره ومنطلق لسانه وأداة تفاهمه، واللغة على مستوى الأمة هي النسيج الحي للحضارة والثقافة، والثقافة

- ألقى هذه الكلمة الدكتور سميح أبو الراغب، نيابة عن الدكتور حسن خريس الذي اضطر للسفر إلى تونس عشية عقد هذه الندوة، ليرأس اجتماع اتحاد الأطباء العرب هناك.

هي الجو الاجتماعي الذي تتنامى فيه شخصية الفرد والجماعة على نحو يميزها عن سائر الثقافات، وهي جو يتألف من قيم وأفكار وأخلاق وأسلوب حياة ويشارك في إغنائه في فرد وكل جماعة في إطار المجتمع.

وعلى صعيد البحث التربوي والعلمي فإن الطالب يستوعب المعرفة بشكل أفضل بلغة الأم، والأستاذ يوصل العلم باقتدار أكبر بلغة الأم، وإن الاثنيْن يتمكنان تعلماً وتعليماً من التواصل والتفاعل والإبداع بدرجة أنجح بتلك اللغة السارية في أعماقها بعيداً عن تشتت الذهن بين دفق المعرفة الجديد. ومغاليق اللغة الأجنبية الغريبة وبمنأى عن عقد الدونية والاغتراب.

ولغتنا العربية تتميز عن باقي اللغات بميزتين، الأولى أنها تمثل جوهر وحدة أمتنا العربية عبر القرون وليس لأمتنا العربية سوى اللغة العربية الفصحى – لغة القرآن الكريم الذي حفظها، ولولاه لأصابها ما أصاب لغات الأمم الأخرى من فناء أو تحول إلى لغات أخرى. والميزة الثانية تلك التجربة التاريخية الخصبة التي مرت بها هذه اللغة عندما استطاعت في فترة وجيزة من تاريخها الزاهر أن تستوعب حصيلة المعرفة الإنسانية وتصبح بعد ذلك لغة العلم والحضارة في العالم أجمع ولعدة قرون.

الزميلات والزملاء...

لقد بادرت دولٌ ومؤسساتٌ علمية عربية في العديد من أقطار الوطن العربي بالدعوة إلى استعادة اللغة العربية مكانتها الحضارية، وقامت بإعداد الدراسات والأبحاث التي تعالج القضايا المتمثلة بقضية تعريب تعليم العلوم، ولكن معظم هذه الدراسات لم تحظ بالمتابعة والتنفيذ لأن التنفيذ مرتبط بالإرادة السياسية والقرار السياسي الذي تتخذه الدولة لوضع ما نصت عليه القوانين والأنظمة في هذا الخصوص موضع التنفيذ.

إن الإنسان يحار أمام تصميم بعض الأمم على استعمال لغاتها القومية في كل مراحل التعليم؛ فدولٌ مثل ألمانيا والسويد وكوريا هي أمثلة شاهدة على ذلك، فما الذي يمنع امتيازات اللغة العربية الحية من أن تفعل مثلما تفعل غيرها؟

لقد أصابَ الرئيسُ الفرنسيُّ فرنسوا متيران حين تحدث إلى شعبة المتعلم المتقدم محذّراً من طغيان استعمال اللغة الانجليزية حيث قال (إن العالم لنْ يستمعَ إلى أمة تتحدث بلسان غيرها).

إننا ندرك أن هناك صعوباتٍ وتحدّياتٍ يجبُ التغلبُ عليها لبلوغ هدفنا: أهمُّها تكوينُ القناعة النفسية لدى هيئات التعليم الجامعي، وترجمةُ الكتب المرجعية وإصدارُ الدوريات العلمية باللغة العربية لملاحظة التطور العلمي المتسارع. ولقد سَهَّل اختراع الحاسوب والحافظات الالكترونية عمليةَ الترجمة حيثُ أصبحَ من الممكن برمجةُ محتويات المعجم الطبي مما يُمكّن من ترجمة أيّ مؤلف علمي، بأية لغة، ترجمةً فوريةً، وأصبح من الممكن الحصولُ على المعلومات الطبية والمراجع اللازمة عن أي موضوع مع ملخص لما ورد فيه في وقت قصير مع الترجمة الفورية من بنوك المعلومات إذا ما توفرت برمجةٌ لمرادفات الترجمة.

لقد أولى اتحادُ الأطباء العرب موضوعَ تعريب التعليم الطبي والصحي جُلَّ اهتمامه. وقد بادر الاتحاد منذ أوائل السبعينات بإصدار المعجم الطبي العربي الموحد بمشاركة مجلس وزراء الصحة العرب، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومنظمة الصحة العالمية. وأصدر المؤتمر الطبي العربي الرابع والعشرون الذي انعقد في القاهرة عام 1988، توصياتٍ تمثلُ خطةً لتعريب التعليم الطبي دعا فيها إلى إعلان السنوات العشر القادمة عقداً عربياً لتعريب الطب والعلوم الصحية وقد نشرت هذه التوصيات كاملة في حينه. وقد تبنى مجلس وزراء الصحة العرب توصيات ندوة تعريب التعليم الطبي والصحي في الوطن العربية الذي عُقدت في دمشق في شهر كانون أول 1988، وقد شارك في هذه الندوة عمداء كليات الطب في الوطن العربي واتحاد الأطباء العرب وممثلون عن مجلس وزراء الصحة والتعليم العالي العرب.

إن دعوتنا إلى تعريب التعليم الطبي والصحي لا يعني عدمَ تعلّم اللغات الأجنبية الحية بل على العكس فإننا ندعو إلى إدخال مقرر اللغة الأجنبية في مناهج الدراسة الجامعية.

زميلاتي... زملائي...

نرجو أن تتمخض ندوتنا هذه عن تعميق الأبحاث بضرورة تعريب التعليم الطبي والصحي في جامعاتنا وعلى اتخاذ الخطوات العملية لتحقيق هذا الهدف. وشكراً لمجمع اللغة العربية الأردني على عقد هذه الندوة ودعوته المستمرة لتحقيق هذا الهدف.

كَلمَة

الدَّكتور سميح ياسين أبو الراغب
أستاذ الطب الشرعي بكلية الطب في الجامعة الأردنية

دَوْرُ أَعْضَاء هَيْئَة التّدْريس في التَّعْرِيْب
وَفي تَدْرِيس
العُلُوم الصُحيَّة باللغَةِ العَربيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

أساتذتي الأجلاء، أخواني وأخواتي الأفاضل
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

يطيب لي أن أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان للأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة، رئيس مجمع اللغة العربية الأردني، وزملائه في المجمع على تشريفي بالمشاركة في هذه الندوة من موسمه الثقافي السابع الخاص بـ (تعريب العلوم الصحية). وسوف يكون موضوع حديثي في هذه الندوة (دور أعضاء هيئة التدريس في التعريب وفي تدريس العلوم الصحية باللغة العربية).

يتفق الجميع أن اللغة أداة للتعبير عن المعاني والأفكار بصورة سهلة تحقق التفاهم على وجه الدقة. وتبعاً لتقدم الأمة وازدهارها، تتطور لغتها أخذا وعطاء على الدوام. ويتفاوت الأخذ من جهة والعطاء من جهة أخرى حسب عطاء أبناء الأمة جوداً أو شحاً.

وإنه لا بد لي في مستهل حديثي في الموضوع من الإشارة أولاً إلى ما أورده أستاذي الفاضل الدكتور عبدالكريم خليفة من تعريف للتعريب والمعرب في الفصل الثالث من مؤلفه القيم (اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث)[1]، من أن التعريب في اللغة في معناه الإبانة والإفصاح، وأن المعرب هو ما استعمله العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها. كما بين أن التعريب هو آخر ما يلجأ إليه في النقل عندما لا توجد كلمة عربية تترجم بها الكلمة الأعجمية، أو يشتق منها اسم أو فعل، أو يجوز فيها مجاز، أو ينحت منها لفظ. وإلى أن هناك فريقين في أمر التعريب، أحدهما يذهب إلى وجوب أن تتبع الكلمة المعربة وزناً عربياً. فليس يكفي أن تتكلم العرب باللفظة الأعجمية

حتى تغدو معربة.. وفريق آخر وفيه سيبويه وجمهور أهل اللغة يذهب إلى أن التعريب هو أن تتكلم العرب بالكلمة الأعجمية مطلقاً، يلحقونها بأبنية كلامهم وحيناً لا يلحقونها. بل ذهب بعضهم إلى القول: إذا عربت الألفاظ الأعجمية، وتمكنت لدى العرب، صرفها العرب واشتقوا منها مثل: ديباج، زنجبيل، لجام.. الخ.

فالتعريب إذاً هو وسيلة لدعم اللغة العربية بألفاظ محددة، غايته الإبانة والإفصاح، مما يدعم مشاركة أبناء العربية في تطوير العلوم الصحية وتفوقهم.

أساتذتي الأجلاء، إخواني وأخواتي الأفاضل،،،

لقد وجدت هذا التقديم لموضوعي ضرورياً، لأضع مسألة التعريب في بعدها الحقيقي، وحتى تكون حجة على من ينأوْنَ أو يخشون تدريس العلوم باللغة العربية.

إن اللغة العربية هي لغة التخاطب والتفاهم بيننا جميعاً في كل أمور حياتنا، وهي لغة طالب العلوم الصحية وأستاذه ابتداء وانتهاء، كما أنها لغتهما في التخاطب والتفاهم مع المرضى حاضراً ومستقبلاً.

أليس من الغريب والعجيب إذن أن نرى على أرض الواقع التعليمي اليومي في كليات الطب التي تدريس بغير اللغة العربية، تخاطب وتفاهم الأستاذ وطالبه مع المريض باللغة العربية من جهة، ويتخلل ذلك أو يعقبه تحاور بين الأستاذ وطالبه، وتعليم من الأستاذ لطالبه حول نفس الموضوع بلغة أخرى.

والأغرب من ذلك، وأعجب أن يجبر من درسوا الطب ونالوا أعلى درجاته بلغة غير الانجليزية مثلاً، على تعلمها وإتقانها كشرط لتعيينهم أساتذة في كليات الطب العربية حتى يقوموا بتدريس أبناء العربية بغير لغتهم.

ولعلّ الأمَرَّ من ذلك أن يلجأ طلبة كليات العلوم الصحية إلى ترجمة ما يتعلمونه بأنفسهم ليستوعبوا مراجعهم المقروءة والمسموعة والمرئية على حساب وقتهم ودرجة تحصيلهم وتفوقهم. فإن كنا نظنهم على استيعاب ما يترجمون قادرين، فلماذا لا يكون أساتذتهم على ذلك أقدر؟

إذا نظرنا إلى الدول المتقدمة علينا في العلوم الصحية، نجد أنها تشترط للقبول في أي من معاهدها على أي من خريجي كليات العلوم الصحية العربية جميعها اجتياز امتحان خاص في لغتها دون أي اعتبار للغة التدريس في كلياتنا العربية حتى ولو كانت نفس لغتها، وإنني لأستدرك فأقول بضرورة تعلم لغة أجنبية أو أكثر ولكن دون إفراط أو تفريط، فللضرورة أحكامها والضرورة تقدر بقدرها.

إن الأستاذ في أي من كليات العلوم الصحية هو الركيزة الأساسية في العملية التعليمية، لأنه المرجع العلمي والتطبيقي لطلابه. وهو قادر على بذل أجزل العطاء بإذكاء روح التفاعل معهم إلى الأهداف التي وجدوا من أجل تحقيقها.

وبما أن الطالب حين يقبل في إحدى كليات العلوم الصحية قد درس وتعلم في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، مختلف العلوم باللغة العربية فإن فرض تدريسه العلوم الأساسية والصحية في المرحلة الجامعية بلغة أجنبية يتطلب نقلة كبيرة وجهداً فائقاً على الطالب وأستاذه لتحويله من اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية مما يؤثر على درجة استيعابه وأدائه وتفوقه. ومما لا شك فيه، فإن تجنب هذا العناء يتحقق باستمرار دراسته وتدريسه باللغة العربية.

ومن هنا يتبين أن الطالب لا يشكل عقبة في وجه التعريب أو دراسة العلوم الصحية وتعلمها باللغة العربية، فإذا كان الأمر كذلك فما العقبة إذن؟ سيقول الجميع بأن العقبة هو المدرس والمرجع وأن أهمهما هو المدرس لأن دوره يتمثل في استعماله اللغة العربية في التدريس من جهة وفي سعيه لتوفير المراجع الضرورية باللغة العربية ترجمة وتأليفاً.

وفي ظني أنه يخطئ من يقول عكس ذلك، لأن المدرس الذي يعجز عن أن يتحول من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية يدرك بلا شك بأن الطالب أعجز من أن يتحول من لغته العربية إلى اللغة الأجنبية. فأي خيار بقي بعد ذلك.

إن أعضاء هيئات التدريس في كليات العلوم الصحية التي تدرس بغير اللغة العربية ينقسمون إزاء مسألة التعريب والتدريس باللغة العربية إلى متحمس لها أو متحمس ضدها أو سلبيين هم إلى النوع الثاني أقرب. وحتى لا أتهم النوع الثاني فلبعض منهم دوافع وللبعض الآخر تبريرات. ولعل الإجابة على التبريرات ستجعل الكثيرين منهم يسيرون في سبيل التعريب والتدريس باللغة العربية.

وحتى يحقق أنصار التعريب والتدريس بالعربية بغيتهم، فلا بدَّ لهم من التركيز على عنصر المدرس حرصهم على غيره من العناصر الأساسية الأخرى والتي بذل في سبيلها جهد جليل أثمر بما يستحق التقدير ويدعم مسيرة التعريب.

إن تحقيق تحول أعضاء هيئات التدريس في كليات العلوم الصحية إلى التدريس باللغة العربية يتطلب في الحاضر بعث روح المبادرة فيهم والأخذ بيدهم حتى يكونوا شركاء فاعلين في عملية التعريب والتدريس وما تتطلبه من ترجمة وتأليف.

إن المراجع التي تبحث في التعليم الطبي تركز على ضرورة التفاعل المباشر بين مدرس العلوم الصحية وطلبته خلال العملية التعليمية. فقد ذكر ريتشارد فولي وزميله في كتابيهما (أساليب التعليم) الصادر في عام 1980[2] إن كفاءة أداء عضو هيئة التدريس في العملية التعليمية يعتمد على مدى تفاعله مع طلبته في تلبية احتياجاتهم التعليمية من خلال إبراز أهمها وما خفي عليهم منها، وبلورة وجمع ما قد يعجزون عن تحصيله من المراجع التي لا حصر لها، وتعزيزهم بما يطرأ من مستجدات علمية بعيدة عن متناول أيديهم بطريقة تعدهم تدريجيا للاعتماد على أنفسهم وهم في سني دراستهم وما يليها في مستقبل حياتهم العلمية والمهنية، وأن تحقيق ذلك يتأتى من خلال وسائل الاتصال المباشرة بينهم.

كما ذكر نورمان جرونلند في الطبعة الخامسة لكتابه (القياس والتقويم في التعليم) الصادرة في عام 1985[3] أنه يجب تجنب التعقيد في تركيب الجمل وتجنب استعمال مفردات الكلمات اللغوية الصعبة أو التي يستخدمها شخص أو طبقة ما، مع عدم استعمال الجمل المبهمة باعتبارها من المعوقات التي تحد من التحصيل العلمي المطلوب وتؤثر سلبيا في قياس وتقويم درجة فهم الطالب ومهاراته في التفكير، وغيرهما من الأهداف النهائية التي يتوقع منه أداؤها بالضرورة.

إن ما ذكرته مما ورد في المرجعين السابقين هو نتيجة أبحاث أجريت في أمريكا حول مقومات ومعوقات التعليم والقياس والتقويم بالنسبة لمن لغتهم الانجليزية هي اللغة الأم ولغة التعليم. فإذا كان الأمر كذلك فيهم فما هو الحال عندنا قياساً عليهم؟

أساتذتي وأخواني الأفاضل:

إن بعث روح المبادرة والعطاء في مدرسي العلوم الصحية على طريق التدريس باللغة العربية سيدفع بحركة التعريب والترجمة والتأليف سريعاً. إلا أن ذلك سيبقى جزئياً ومرحلياً دون المساندة بالقرار ومتابعة تنفيذه بالإضافة إلى الدعم المعنوي والمادي. فبدون ذلك كله ستتعثر الترجمة ويتراجع التأليف. إذ لحساب من سيترجم ويؤلف إذا لم توضع التراجم والمؤلفات بين أيدي مدرسين وطلبة ملتزمين بالتدريس باللغة العربية.

إن ترجمة وتأليف المراجع في العلوم الصحية باللغة العربية، جنباً إلى جنب، مع تعريب المصطلحات الأجنبية حسب القواعد اللغوية الصحيحة ركن أساسي في عملية التدريس باللغة العربية، كما أن الركن الأساسي في الترجمة والتأليف والتعريب هم مدرسو العلوم الصحية. ولا غنى لأحد منهما عن الآخر.

إن تخلف أعضاء هيئات التدريس في كليات العلوم الصحية في العالم العربي عن تهيئة أسباب التدريس باللغة العربية المرجوة منهم له أسباب هم جزء منها، وعليهم مسؤولية في ذلك، ولكن ليست المسؤولية كلها عليهم.

وفقنا الله جميعاً في تيسير الأسباب وتحمل المسؤولية.

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" صدق الله العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المراجع:

١ –عبدالكريم خليفة، اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، من منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1407هـ – 1987م.

2. Richard P. Foley and Jonathan Smilansky, Teaching Techniquesm McGraw-Hill Book company, New York. 1980.

3. Norman E. Gronlund, Measurement and Evaluation in Teaching, 5th. Edition. Macmillan Publishing Company. New York, 1985.

كَلمَـة

الـدَّكـتُـور حُسَـام الـدِّيـن الـجرَّاح

رئـيس شعبـة تـقـويـم الأسـنـان فـي مـديـنـة الـحسيـن الـطبيـة سـابـقـاً

مُعَوِقَات
في تَعْرِيْب العُلوم الطبيَّة الصحيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السيدات والسادة:

شرفني مجمع اللغة العربية الأردني بأن أكون أحد المشاركين في موسمه الثقافي هذا العام. وأنه ليشرفني أن أقف بينكم في هذه الأمسية العطرة من أماسي المؤتمر لأتحدث حديثاً مختصراً عن جانب من جوانب الموضوع الرئيسي الذي ينعقد له هذا الموسم.

أما الموضوع فهو تعريب العلوم الصحية الذي يوليه هذا المجمع الكريم كثيراً من جهوده الخيرة: الجهود التي تجاوزت الحدود النظرية في عقد الندوات وعرض المشكلة وتقليبها على وجوهها، وتشخصيها ووصف ما يصلح لها، تجاوزت ذلك كله إلى خطوات عملية خطاها المجمع في سبيل التعريب حين وضع بين أيدي الباحثين والدارسين في الجامعات العربية على امتداد الوطن العربي، مجموعة صالحة من كتب العلوم بمختلف الاختصاصات والفروع قام بتعريبها نخبة من أساتذة الاختصاص، فأدى بذلك دوراً ممتازاً، وخطا خطوات في الطريق، فانتقلت بذلك مسؤولية تنفيذ التعريب أو بعض هذه المسؤولية إلى كوادر متخصصة تتعايش وهذه المسؤولية في ميدان العمل فوقعت على كواهل الأساتذة الجامعيين والباحثين الأكاديميين. وتتمثل هذه المسؤولية في استخدام هذه الكتب وإغنائها عن طريق التنقيح والدرس والتداول.

وأما الجانب الذي سأتناوله بالحديث فيتصل بالمعوقات القائمة في تعريب هذه العلوم والمشكلات التي تعترض هذه السبيل.

وأصدقكم القول أنني حين تلقيت الدعوة الكريمة من الأخ الفاضل رئيس المجمع، وشرعت بالإعداد لهذه الندوة، وقعت إلى حين بالتردد والتأجيل والاعتذار واستمر هذا الحال حتى قرأت تقريراً مميزاً للدكتور محمود إبراهيم جاء فيه أن الأحجام في حد ذاته يعد من المعوقات. عندها قررت حمل جزء من الأمانة (التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان)، وأيّ أمانة أثقل من أمانة العلم وشرف الكلمة.

واسمحوا لي أن ألج موضوع المعوقات من خلال تفاعلها داخل الجسم الطبي؛ فأهم مشكلة تواجه دراسة العلوم الصحية وتدريسها باللغة العربية إقناع القِسْم الطبي بالفوائد الجمة لهذا العمل الموضوعي الجليل.

ويمكن للباحث أن يصنف الأطباء في هذا المجال في ثلاث فئات:

الفئة الأولى:

فئة متشددة ترى وجوب تدريس الطب بلغة أجنبية والمراد باللغة الأجنبية إذا ذكرت، اللغة الانكليزية، لأنها هي اللغة الأجنبية السائدة في هذا الجزء من العالم، سيادتها في أجزاء أخرى واسعة منه.

الفئة الثانية:

فئة متحمسة ترى وجوب التدريس بلغة عربية أي لغة، لغة لا يشترط فيها التجويد والإجادة بمقدار ما يطلب منها أن تكون وسيلة للفهم والإفهام.

الفئة الثالثة:

فئة ترى وجوب التدريس باللغة العربية ولكنها ترى أيضاً وجوب الإعداد الممتاز لهذه الخطوة المهمة لأنها تمثل انقلاباً حقيقياً في ميدان التربية والتعليم، تتعلق به مصائر الأمة من جميع وجوهها، وتتعرف فيه الأمة إلى هويتها الحقيقية.

أما بالنسبة للفئة الأولى، فإن الباحث يذكر بألم وأسى أن كثيراً ممن يمثلونها يعملون في مجال التدريس الجامعي، وهم قادة في اختصاصاتهم، وهم غير مستعدين لمناقشة مثل هذا الموضوع بأية صورة من الصور. لقد عجبت وتألمت عندما حدثني أستاذ كبير في طب الأسنان قبل حوالي سنة قائلاً: لن يدرس طب الأسنان باللغة العربية في مصر الكنانة ما دمت حياً!! تّحد صريح وواضح، فيه عدوان على فكر الأمة وثقافتها ولغتها التي تعبّر عن هذا الفكر وهذه الثقافة.

وأبرز المعوقات في نظر هذه الفئة هي (كما ورد في كتاب اللغة العربية للدكتور عمر الأسعد):

١ –بطء حركة التعريب، وعدم انسجامها وتوافقها ومسايرتها للتسارع الهائل لحركة التأليف العلمي في الغرب. فإنه لا يكاد يعرّب كتاب أو مجموعة كتب في علم من العلوم وتوضع بين أيدي الطلبة والباحثين حتى يكون قد صدر في الغرب مراجع جديدة في العلم نفسه تضيف جديداً وتعني المعرفة فتصبح الكتب المترجمة بمعلوماتها القديمة شيئاً كأن لم يكن.

٢ –التباين والتغاير في بعض المصطلحات التي عربت في بعض البلدان العربية وعم دلالتها بدقة على المصطلح الأصلي الذي وضعت له، وأن ازدواج المصطلح في حدّ ذاته مشكلة تعيق التعريب وتعرقله، وتتسبب في إشكالات ما كانت لتكون في حال المصطلح الواحد والاتفاق على استخدامه.

٣ –صعوبة اللغة العربية: نحوها وصرفها وقواعدها الكتابية.

ومن مظاهر هذه الصعوبة تصريف الأسماء والأفعال مع الضمائر، ودقة استعمال الأفعال المرفوعة والمنصوبة والمجزومة، وضبط الحروف بالتنقيط والشكل.

٤ –غربة العربية الفصحى وعجزها عن مواجهة تيار اللهجات العامية التي تتفاوت من بلد إلى آخر تفاوتاً شديداً، التي تقف في وجه انتشار الفصحى وتداولها، وخاصة في المدارس والكليات والجامعات. وأنه لا معنى والحالة هذه، لأن توجد لغة للكتابة وأخرى للكلام فذلك يحول دون ترقي الأمة.

٥ –دخول كثير من الألفاظ والنماذج اللغوية الأعجمية اللغة العربية وتداولها على نطاق واسع ولا بديل في العربية لتلك الألفاظ والنماذج.

هذه أبرز المعوقات التي ساقتها وجهة نظر الفئة الأولى واحتجت بها.

أما الحديث عن الفئة الثانية التي ترى وجوب التدريس باللغة العربية مهما كان مستوى اللغة فهو حديث يدعو إلى الأسى والأسف معاً، نعم، أيها المستمعون الكرام!!!

لأن هذه الفئة لم تطلع على ما للغة من دور في حياة الشعوب وثقافتها وعلومها. فاللغة – كما يقول اللغويون المعاصرون – إنْ هي إلا مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين. واللغة الجماعية الموحدة هي الشرط الجوهري للعمل الجماعي وللتعاون والانضباط. ولذلك نرى أن منظمة اليونسكو والاتحاد السوفياتي يحضان على تعليم العلوم باللغة القومية لأنها لغة الإبداع. هذا الإبداع لن يحدث إلا إذا كانت اللغة المستعملة موحدّة سليمة صحيحة تصل الإنسان بفكره وجذوره وقواعد إبداعه.

– وأما عن الفئة الثالثة – وأنا منها – فمع التعريب دون تردد ولكنها تنظر إلى المعوقات التي تحتج بها الفئة الأولى نظرة هادئة موضوعية، وترى أن فيها نسبة واضحة من الصواب ولكنها تعتقد بحزم وصدق أن أكثر هذه المعوقات يمكن التغلب عليها إذا اتخذ التعريب مساراً آخر، مساراً تتبناه الأمة جميعاً على مختلف مسؤولياتها وصلاحياتها الرسمية والأكاديمية وترصد له الأموال والكفاءات المناسبة.

فحركة التعريب بطيئة حقاً وما نراه من كتب ونشرات ما هو إلاّ غيض من فيض. ولا يجوز منطقياً أن نطلب من الأطباء الاكتفاء بالمواد الطبية المنشورة باللغة العربية. إن المادة الطبية أصبحت من الغزارة بحيث أن الطبيب – على مختلف الجنس والمكان – لا يستطيع اللحاق بها، وتعريب هذه المادة سيتطلب جهوداً جبارة وأموالاً كثيرة وإعداداً متواصلاً لكوادر مميزة من القسم الطبي تفهم روح العربية وروح الانكليزية لتكون قادرة على تعريب جيد، قوي، يمضي قدماً، فلا يتعرض لشبح الانتكاسة مرة أخرى، كانتكاسة المريض الذي سار به طبيبه خطوات واسعة في طريق الشفاء.

أما إذا لم تهيأ الكوادر المميزة "يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين" فستكون الكتب المعربة لا هي بالعربية ولا بالانكليزية ولن تكون بالضرورة أداة للإبداع، وقد تعد في كثير من الأحيان من المعوقات، ويؤسفني أن أقول إن المكتبة العربية مليئة بأمثال هذه الكتب.

أما عن تيسير اللغة العربية فكم يسر الدارس عندما يعلم أن التيسير أصبح موضع اهتمام مجامع اللغة العربية، وللدكتور خليفة كتاب قيم في هذا الموضوع. إن من يعتقد أن لدى الطبيب المميز الوقت الكافي ليحفظ أن "ما" نكرة تامة بمعنى شيء مبنية على السكون محل رفع مبتدأ يكون دون شك خرج من جادة الصواب. فقد أصبح التيسير كما يقول الدكتور هاشم ياغي مطلب الأجيال الناشئة من هذه الأمة، وعلى المعنيين بهذا الأمر أن يتركوا التزيد من الضوابط. نحن بحاجة للغة صحيحة بسيطة دقيقة، لغة تفرق بين الدلالات الدقيقة لكلمات يبدو للناس أنها متشابهة في المعنى.

وبعد أيها السادة فنحن مع التعريب بقوة، مع التعريب الذي يستند إلى أسس علمية راسخة تمكنه من الصمود والنمو حتى يصبح كياناً قوياً وحقيقة ثابتة "أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض"، صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كَلمَــة

الـدَّكـتُـور مـحـمـود تـقـي الـديـن
مدير الإنتاج في الشركة الأردنية لإنتاج الأدوية

تَعْرِيب المُصْطَلَح الطّبي

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد المحاضرات الثلاث القيمة التي سمعناها من محاضرين يشهد لهم، خلال هذا الموسم الثقافي لمجمع اللغة العربية، أكاد لا أجد من جديد أضيفه في هذا المضمار. فالسادة المحاضرون قد أكدوا أهمية لغة المخاطبة كوعاء لاحتواء الفكرة ونقلها إلى الغير والقائمون على شؤون التعليم من مدرسين وعمداء كليات طب عربية أقروا في ندوتهم الأخيرة ضرورة تعريب التعليم الطبي وكذلك اتحاد الأطباء العرب أقر ذلك، وكان قد أعلن العقد 89 إلى 99 عقداً للتعريب، وقد كان الإجماع من الحضور للندوات المذكورة آنفاً على ضرورة التعريب وكان التساؤل المطروح دوماً هو متى سيبدأ التنفيذ الفعلي والجاد والشامل؟

وطبعاً لا بد لكل إجماع من شذوذ وإن وجدنا ستاراً يختبئ خلفه من لا يريدون للعلوم الطبية أن تدرس باللغة العربية فإننا نجده مشكلة تعريب المصطلح الطبي وإنني في هذا المجال لا أرى فارقاً بين العلوم الصحية وبين العلوم الحياتية الأخرى فالمصطلح هو كلمة ذات دلالة معينة يمكن فهمها مباشرة لدى سماعها من قبل الناطقين بهذه اللغة (اللغة العربية في حالنا هذه)، أو يمكن التآلف معها والتعارف على المعنى الذي تحمله بموجب الاستعمال، ولأضرب مثلاً على ذلك:

لو قلت كلمة "مذياع" أما شخص عربي لم يسمع ولم يشاهد قط هذا الجهاز لعرف أنني أعني شيئاً ينشر معلومات وأقوالاً بوساطة الصوت ويبثها بين السامعين. أما لو قلت كلمة "راديو" لما عنَتْ عنده شيئاً إلا أن يتعلم بالممارسة أن هذه الكلمة تعني شيئاً ينشر صوتاً.. وبعد تعلم هذه الكلمة وممارستها يتساوى التعبيران العربي "مذياع" والأجنبي "راديو" في نقل المعلومة إلى القارئ أو السامع. ولكن سرعان ما تأتي صعوبة إخضاع الكلمة الأجنبية لقواعد الصرف والاشتقاق العربية؛ فبينما يستطيع العربي أن يقول مباشرة

من كلمة مذياع: أذاع وإذاعة وغيرها من المشتقات فإنه يجد صعوبة التعبير في اللفظ الآخر، وإن كنا في حالات أخرى نجد أن التعريب وهو تطويع الكلمة الأجنبية لقواعد اللفظ والاشتقاق العربية أسهل. فمن كلمة تلفزيون أمكن اشتقاق تلفزة، ولكن هذه الكلمات – ولو أنها طوعت لفظاً – إلا أنها ظلّت خاوية المعنى، فكلمة تلفزيون التي تعني لسامعها الأجنبي: الرؤية من بعيد لا تعني بالنسبة للسامع العربي إلا ما تعلّمه بالممارسة من أنها تدل على جهاز تظهر عليه صورة ملتقطة. بينما لو اعتمد واحد من الألفاظ المقترحة لهذا الجهاز وهي: "الرائي" أو "المرناة" لكان لكل منها دلالة، فالمرناة هي اسم أداة من فعل رنا – يرنو أي نظر وسمع بانتباه. إن ما قلته عن المذياع والمرناة ينطبق على أي مصطلح علمي أو طبي، أن تعددت الترجمات المعتمدة ما بين بلد وآخر فان ذلك لن يكون حاجزاً في نقل المقصود إلى السامع. فسواء قلت: استخدمت المصعد، كما يقال في أكثر الدول العربية، أو قلت: استخدمت المعراج، كما يقال في الجزائر، فإن الفهم سيصل إلى السامع رغم غرابة استعمال "معراج" في هذا الصدد. بل إن العربي الذي لم يستعمل هذه الآلة في حياته كلها ولم يسمع بها سيكون في ذهنه لدى سماعها مباشرة فكرة بأنها تعني شيئاً يعين على الصعود بينما لن تصل إليه هذه المعرفة لدى سماعه كلمة "أصانصير" إلا أن يتعلم مدلولها.

إن أجمل ما في تعريب المصطلح العلمي هو ترجمته ليكون ذا دلالة لغوية يفهمها أي ناطق بالعربية، وطبعاً ليس من الضروري أن يفهم كامل مدلولها العلمي الدقيق بالشكل الذي سيفهمه الشخص المتعلم والمستخدم لهذا المصطلح، وأضرب مثالاً على ذلك:

كلمة "تأيّن" التي اعتبرت في بعض الكتب العربية تعريباً لكلمة Ionisation ليس لها أي مدلول لغوي دون تعلم للظاهرة العلمية المذكورة، بينما نجد في كلمة "تشرد" المستخدمة في الكتب السورية لترجمة نفس الكلمة دلالة مباشرة لسامعها يفهم منها الانتشار والتفرق والابتعاد عن مكان الوجود الأصلي. كذلك كلمة شاردة هي أكثر دلالة من كلمة أيون.

إن الأمثلة السابقة تعطي فكرة واضحة عن السهولة في نقل المعلومة من المدرس إلى الدارس عند استخدام المصطلح المترجم ترجمة حقيقية ولكن مهما يكن من أمر فان تعريب المصطلح أو عدم وجود ترجمة له لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون عائقاً أمام التدريس باللغة العربية فإن نقل المعلومات وفهمها لا يتعلق بالمصطلح وحده بل يتعلق وبصورة رئيسة بالتعبير اللغوي الكامل أي تركيب الجملة. وكم من مرة وجدت حتى من الطلاب المتفوقين في لغتهم صعوبة في فهم بعض المواضيع ناجمة عن عدم فهم لغوي محض لجمل لا تحتوي أي مصطلح علمي.

وأخيراً لا بد لي أن أشير إلى أن جهوداً كبيرة قد وضعت في مجال ترجمة وتعريب المصطلح العلمي ويوجد الآن في متناول المهتمين الكثير من المراجع والقواعد العامة المتبعة في هذا الصدد وإنني إذ أخص بالذكر المعجم الطبي الموحد، لأذكر أيضاً أن أسلافنا قد تعرضوا ومنذ زمن بعيد لهذه المهمة عندما نقلوا علوم اليونان والرومان إلى اللغة العربية. ويسرني هنا أن أشير إلى موضوع رسالة ماجستير قدمت في الجامعة السورية يوم الأحد الفائت 5/28 تحت عنوان المصطلحات العلمية في كتاب القانون لابن سينا حيث بينت صاحبة الرسالة مدى الدقة التي كان يتوخاها أمثال هؤلاء العلماء في نقلهم وترجمتهم وكيف كانوا يلجأون عند خشية اختلاف الأمور إلى الإشارة إلى الاسم الأجنبي.

وإن كانت هذه الندوة ستخرج بتوصية فإنني أرى أن يتم تشكيل لجنة دائمة تنبثق عن مجامع اللغة العربية المختلفة وتضم متخصصين في كل علم من علوم الحياة المختلفة تكون مهمتها مراجعة الترجمات المختلفة واعتمادها على مستوى العالم العربي.